الفصل السادس

عهد أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رضي الله عنه

المبحث الأول

اسمه ونسبه وكنيته ونشأته وبيعته

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته:

هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة، أمير المؤمنين، أبو بكر، وأبو خبيب، القرشي الأسدي المكي، ثم المدني، أحد الأعلام، ولد حواري رسول الله وابن عمته[1].

ثانياً: مولده ومبايعته لرسول الله ﷺ:

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: أنها حملت بعبد الله بن الزبير في مكة، قالت: فخرجت وأنا مُتمٌّ فأتيت المدينة، فنزلت قباء، فولدت بقباء، ثم أتيت به رسول الله ﷺ، فوضعته في حجره، ثم دعا بتمرة، فمضغها ثم تفل في فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ ثم حنكه بالتمرة، ثم دعا له، فبرّك عليه، وكان أول مولود ولد في الإسلام، ففرحوا به فرحاً شديداً لأنهم قيل لهم: إن اليهود قد سحرتكم، فلا يولد لكم[2]. وسماه عبد الله، ثم جاء بعد وهو ابن سبع، أو ابن ثمان سنين، يبايع النبي ﷺ، أمره الزبير رضي الله عنه بذلك، فتبسم النبي ﷺ حين رآه مقبلاً، ويايعه. وكان أول من ولد في الإسلام في المدينة بعد مقدم رسول الله ﷺ، وكانت اليهود تقول: قد أخذناهم، فلا يولد لهم بالمدينة ولد ذكر، فكبّر أصحاب رسول الله ﷺ حين ولد عبد الله[3]، وقد طاف به الصديق رضي الله عنه بالمدينة بعد ولادته ليشتهر أمر ميلاده على خلاف ما زعمت اليهود[4] وهذا أسلوب إعلامي عملي للقضاء على شائعات اليهود التي روجوا لها بالمدينة وكان ابن الزبير ملازماً للدخول على رسول الله ﷺ لكونه من آله، فكان يتردد إلى بيت خالته عائشة[5] زوج الرسول ﷺ.

---

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 363).
(2) البخاري رقم (5469)، اليهود في السنة المطهرة (1/ 265).
(3) الحاكم (3/ 548).
(4) البداية والنهاية (11/ 188).
(5) سير أعلام النبلاء (3/ 364، 365).

ثالثاً: الزبير بن العوام والد عبد الله ﷺ:

هو أبو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشي الأسدي[1]، ويجتمع مع النبي ﷺ في قصي وهو حواري رسول الله ﷺ وابن عمته، وأمه صفية بنت عبد المطلب، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد أصحاب الشورى[2]، أسلم وهو حدث وله ستة عشر سنة[3]، ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ[4]، وقد تعرض بعد إسلامه للتعذيب، فقد روي أن عم الزبير، كان يعلق الزبير في حصير ويدخن عليه بالنار وهو يقول: ارجع إلى الكفر، فيقول الزبير: لا أكفر أبداً[5]، وقال في حقه رسول الله ﷺ: «لكل نبي حواري، وحواري الزبير»[6]. أي خاصتي من أصحابي وناصري ومنه الحواريون أصحاب عيسى عليه السلام أي خلصاؤه وأنصاره فالحواري هو الناصر المخلص، فالحديث اشتمل على هذه المنقبة العظيمة التي تميز بها الزبير ﷺ، ولذلك سمع عبد الله بن عمر ﷺ رجلاً يقول: أنا ابن الحواري فقال: إن كنت من ولد الزبير، وإلا فلا[7]، وكان الزبير بن العوام في عهد رسول الله ﷺ رجل المهمات الصعبة وكان في عهد الراشدين من أعمدة الدولة وشارك في فتوحاتها الكبيرة[8] وقد عرض عليه عمر بن الخطاب ولاية مصر في عهده فقال الزبير: لا حاجة لي فيها، ولكني أخرج مجاهداً وللمسلمين معاوناً، فإن وجدت عمرو بن العاص فتحها (مصر) لم أعرض لعمله، وقصدت إلى بعض السواحل فرابطتُ به، وإن وجدته في جهاد كنت معه[9]، وقد تحدثت عن سيرته في كتابي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فمن أراد المزيد فليرجع إليه مشكوراً[10].

رابعاً: أسماء بنت الصديق والدة ابن الزبير ﷺ جميعاً:

هي أسماء بنت عبد الله بن أبي قحافة بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم

---

(1) الإصابة (1/ 526. 528).
(2) الطبقات (3/ 100).
(3) سير أعلام النبلاء (1/ 41).
(4) سير السلف (1/ 226).
(5) الطبراني في الكبير (1/ 122).
(6) مسلم رقم (2414).
(7) مصنف ابن أبي شيبة رقم (12219)، صحيح.
(8) سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ص: 541.
(9) فتوح البلدان، ص: 299، نظام الحكم للقاسمي (1/ 544).
(10) سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ص: 535 إلى 550.

ابن مرة[1]، وكانت من أوائل المسلمات حيث أسلمت وأختها عائشة وهي يومئذٍ صغيرة[2].
ولها مواقف مشهودة، وآثار محمودة في تاريخنا الإسلامي المجيد ومن هذه المواقف:

1 - في الهجرة النبوية:

قالت السيدة عائشة في حديث طويل منه: فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر، عند الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله متقنعاً[3] في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر إلى أن قالت: . .فجهزناهما أحث الجهاز (من الحثّ وهو الإسراع) وضعنا لهم سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر ﷺ قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت بذات النطاقين[4]. فقد أسهمت السيدة أسماء ﷺ في تموين الرسول ﷺ وصاحبه في الغار بالماء والغذاء، وكيف تحملت الأذى في سبيل الله، فقد حدثتنا عن ذلك فقالت: لما خرج رسول الله ﷺ، وأبو بكر ﷺ أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي قالت: فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشاً - فلطم خدّي لطمة، طرح منها قرطي، قالت: ثم انصرفوا[5]، فهذا درس من أسماء والدة عبد الله بن الزبير ﷺ، تعلّمه لنساء المسلمين جيلاً بعد جيل، كيف تخفي أسرار المسلمين عن الأعداء، وكيف تقف صامدة شامخة أمام قوى البغي والظلم، وأما درسها الثاني البليغ، فعندما دخل عليها جدها أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لا أراه قد فجعكم بماله ونفسه. قالت: كلا يا أبت ضع يديك على هذا المال، قالت: ووضع يده عليه فقال: لا بأس، إذا كان ترك لكم هذا، فقد أحسن. وفي هذا بلاغ لكم، قالت: ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكني أردت أن أسكت الشيخ بذلك[6]، وبهذه الفطنة، والحكمة، سترت أسماء أباها، وسكنت قلب جدها الضرير، من غير أن تكذب، فإن أباها قد ترك لهم حقاً هذه الأحجار التي كومتها، لتطمئن لها نفس الشيخ! إلا أنه قد ترك لهم معها إيماناً بالله لا تزلزله الجبال، ولا تحركه العواصف الهوج، ولا يتأثر بقلة أو كثرة في المال، وورثهم يقيناً، وثقة بلا حدٍ لها، وغرس فيهم همة تتعلق بمعالي الأمور ولا تلتفت إلى سفاسفها[7]، فضرب بهم

(1) الطبقات الكبرى (3/ 119).
(2) السيرة النبوية (1/ 271) عبد الله بن الزبير للناطور، ص: 17.
(3) متقنعاً: مغطياً رأسه.
(4) البخاري رقم (3905) السيرة النبوية للصّلاّبيّ (1/ 463).
(5) تاريخ الطبري (2/ 379 - 380) السيرة النبوية لابن هشام (2/ 131 - 132)1,
(6) السيرة النبوية لابن هشام (2/ 102)، إسناده صحيح.
(7) السفساف: الرديء الحقير من كل شيء والجمع سفاسف.

للبيت المسلم مثالاً عز أن يتكرر وقل أن يوجد نظيره، لقد ضربت أسماء ﷺ بهذه المواقف لنساء وبنات المسلمين مثلاً هن في أمس الحاجة إلى الاقتداء به والنسج على منواله[1].

2 - صلة أسماء لأمها المشركة:

عن أسماء بنت أبي بكر ﷺ قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ، قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: نعم، صلي أمك[2]، قال ابن حجر: وفي قولها وهي راغبة أقوال، والذي عليه الجمهور من هذه الأقوال أنها قدمت طالبة من بر ابنتها لها، خائفة من ردها إياها خائبة. وفي هذا الحديث من الفوائد ما ذكره الخطابي: إن الرحم الكافرة توصل بالمال ونحوه كما توصل المسلمة[3]. وقد قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: 8-9]. وهذه الآيتان رخصة في الذين لم ينصبوا الحرب للمسلمين، وجواز برهم، وإن كانت الموالاة منقطعة[4].

3 - شجاعتها وجهادها في اليرموك مع زوجها:

وأما شجاعتها وجراءتها وجهادها في سبيل الله فأمر يفوق الخيال: فمن ذلك خروجها مع الجيش يوم اليرموك، فلقد شهدت اليرموك مع زوجها الزبير وابنها عبد الله[5]، ومن شجاعتها استعدادُها التام لمواجهة اللصوص الذين كثروا في يوم من الأيام بالمدينة، عن فاطمة بنت المنذر أن أسماء بنت أبي بكر اتخذت خنجراً زمن سعيد بن العاص - أي في زمن إمارته المدينة وكانوا قد كثروا في المدينة، فكانت تجعله تحت رأسها[6].

4 - علاقتها بالقرآن الكريم:

كانت ﷺ قد تربت على كتاب الله وهدي النبي ﷺ وإليك هذه الصورة المشرقة من حياتها مع القرآن الكريم فذات يوم دخل عليها ابنها وهي تُصلي فسمعها تقرأ هذه الآية ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور: 27]. فبكت واستعاذت... فقام وهي تستعيذ. فلما

(1) الهجرة النبوية المباركة، ص: 128.
(2) البخاري رقم (2620).
(3) فتح الباري (5/ 277).
(4) شرح منظومة الآداب (1/ 297)، بر الوالدين أم حفص عبير بنت محمد، ص: 36.
(5) طبقات ابن سعد (8/ 253) أسماء بنت أبي بكر للصباغ، ص: 33.
(6) طبقات ابن سعد (8/ 253) أسماء بنت أبي بكر، ص: 33.

طال عليه أتى السوق وقضى منه حاجته.. ثم رجع فوجدها ما تزال في بكائها تستعيذ[1].
وكانت إذا أُصيبت بالصُّدَاع تضع يدها على رأسها وهي تقول: بذنبي وما يغفر الله أكثر[2].
وهذا فهم عميق لقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: 30] وقد أفرد الدكتور محمد بن لطفي الصبّاغ رساله قيمة في حياة السيدة أسماء رضي الله عنها، وسيأتي الحديث عن بعض الدروس والعبر في حصار الحجاج لابنها عبد الله بمكة بإذن الله.

خامساً: أولاد ابن الزبير وزوجاته:

كان له من الولد خُبيبُ وحمزة وعباد وثابت وأمهم تماضر بنت منظور الفزاري، وهاشم وقيس وعروة - قتل مع أبيه - والزبير، وأمهم أم هاشم بنت حلة بن منظور وعامر وموسى وأمّ حكيم وفاطمة وفاختة، وأمهم جثيمة بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وبكر ورقية وأمهم عائشة بنت عثمان بن عفان، وعبد الله ومصعب من أم ولد[3].

سادساً: ابن الزبير في عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية رضي الله عنهم:

1 - في اليرموك:

لا نجد في كتب السيرة أي خبر عن اشتراك عبد الله بن الزبير في الحروب والغزوات رغم حضوره مع والده غزوة الأحزاب وفتح مكة، فقد كان في مقتبل العمر ولم يتجاوز عمره عند وفاة الرسول ﷺ إحدى عشر سنة. وكان الرسول ﷺ لا يجيز أحداً من الغلمان لم يبلغ الخامسة عشر وأول ما يرد من أخبار تتعلق بخروجه مع الجيوش، ومرافقته لوالده في تحرير بلاد الشام وحضوره معركة اليرموك إذ يقول عبد الله: كنت مع أبي عام اليرموك، فلما تعبأ المسلمون للقتال، لبس الزبير لأمته ثم جلس على فرسه ثم قال لموليين له: أحبسا عبد الله بن الزبير معكما في الرحل، فإنه غلام صغير[4]. وبعد انتهاء القتال شارك عبد الله في علاج الجرحى بعد انهزام المشركين[5] وإن لم يشارك في القتال لصغر سنه فإنه ألف القتال والعراك وصليل السيوف منذ نشأته مما زاد في شجاعته وخبرته العسكرية[6].

---

(1) الحلية (2/ 55) أسماء بنت أبي بكر، ص: 9.
(2) الحلية (2/ 55) أسماء بنت أبي بكر، ص: 33.
(3) البداية والنهاية (11/ 213).
(4) تاريخ الطبري نقلاً عن عبد الله بن الزبير، ماجد لحام، ص: 41.
(5) تاريخ ابن عساكر نقلاً عن عبد الله بن الزبير، ص: 41.
(6) عبد الله بن الزبير، ص: 41.

2 - ابن الزبير مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ :

مرّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وابن الزبير يلعب مع الصبيان، ففروا ووقف ابن الزبير فقال له عمر: مالك لم تفر معهم، فقال لم أجرم فأخافك، ولم تكن الطريق ضيقة فأوسع لك[1]، وتروى المصادر حادثة أخرى تبين شجاعته منذ صباه الباكر، فقد ذكرت المصادر التاريخية إنه كان ذات يوم يلعب مع الصبيان وهو صبي، فمر بهم رجل فصاح عليهم ففروا، ومشى ابن الزبير القهقرى وقال: يا صبيان اجعلوني أميركم وشدّوا بنا عليه ففعلوا[2].

3 - كتابة المصاحف في عهد عثمان:

عن أنس: أن عثمان أمر زيداً، وابن الزبير، وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام، فنسخوا المصاحف، وقال: إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم[3]، ومن أراد التفصيل في جمع سيدنا عثمان ﷺ للمصاحف فليراجع كتابي عن عثمان بن عفان ﷺ .

4 - جهاده في شمال أفريقيا في عهد عثمان ﷺ :

انقطع خبر المسلمين في إفريقية عن عثمان بن عفان ﷺ فسيّر إليهم عبد الله بن الزبير في جماعة ليأتيهم بأخبارهم، فسار مجداً ووصل إليهم، وأقام معهم، ولمّا وصل، كثر الصّياح، والتكبير في المسلمين، فسأل جرجير عن الخبر، فقيل: قد أتاهم عسكر، ففتّ ذلك في عضده، ورأى عبد الله بن الزبير قتال المسلمين كلّ يوم من بكرة إلى الظُّهر فإذا أُذّن بالظهر عاد كل فريق إلى خيامه، وشهد القتال من الغد فلم ير ابن سعد معهم فسأل عنه فقيل: إنه سمع منادي جرجير يقول: من قتل عبد الله بن سعد، فله مئة ألف دينار، وأزوّجه ابنتي وهو يخاف فحضر عنده، وقال له: تأمر منادياً ينادي: من أتاني برأس جرجير، نفّلته مئة ألف، وزوجّته ابنته واستعملته على بلاده ففعل ذلك فصار جرجير يخاف أشدَّ الخوف من عبد الله[4]. ثمّ إن عبد الله ابن الزبير قال لعبد الله بن سعد: إنَّ أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متصلة وبلاد هي لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهّبين، ونقاتل نحن الرُّوم في باطن العسكر إلى أن يضجروا ويملُّوا فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون، ركب من كان في الخيام من المسلمين، ولم يشهدوا القتال، وهم مستريحون ونقصدهم على غرّة فلعلَّ الله أن ينصرنا عليهم، فأحضر جماعة من أعيان الصّحابة، واستشارهم، فوافقوه على ذلك، فلمَّا كان الغد، فعل عبد الله ما اتفقوا عليه وأقام جميع شُجعان المسلمين في خيامهم، وخيولهم عندهم مُسَرَّجة مضى

(1) الكامل في التاريخ (2/ 75).
(2) المصدر نفسه (2/ 75).
(3) سير أعلام النبلاء (3/ 370).
(4) التاريخ الإسلامي (12/ 388).

الباقون، فقاتلوا الرّوم بالانصراف على العادة فلم يمكنهم ابن الزُّبير، وألح عليهم بالقتال، حتى أتعبهم، ثم عاد عنهم، والمسلمون، فكل الطائفتين ألقى سلاحه، ووقع تعباً فعند ذلك أخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين وقصد الرّوم فلم يشعروا بهم حتى خالطهم، وحملوا حملة رجل واحد وكبَّروا فلم يتمكن الرّوم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون وقتل جرجير قتله ابن الزبير، وانهزم الرّوم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأخذت ابنة الملك جرجير سبية، ونزل عبد الله بن سعد المدينة، وحاصرها حتى فتحها، ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار، وسهم الرَّاجل ألف دينار، ولما فتح مدينة سبيطلة، بثَّ جيوشه في البلاد فبلغت قفصة، فسبوا، وغنموا وسيَّر عسكراً إلى حصن الأجم، وقد احتمى به أهل تلك البلاد، فحصره، وفتحه بالأمان، فصالحه أهل إفريقية - ونقّل عبد الله بن الزبير ابنة الملك، وأرسله ابن سعد إلى عثمان بالبشارة بفتح إفريقية[1]. قال ابن كثير: فكان هذا أول موقف اشتهر فيه أمر عبد الله بن الزبير رضي الله عنه وعن أبيه، وأصحابهما أجمعين[2]، وكان الشاعر أبو ذؤيب الهذلي قد خرج مع ابن الزبير في مغزى نحو المغرب - في عهد عثمان - فمات فدلاّه عبد الله بن الزبير في حفرته وقد قال الشاعر أبو ذؤيب في تلك الغزاة في عبد الله بن الزبير:

وصاحبٍ صدق كسيد[3] الضَّرَاءِ[4] ينهض في الغزو نهضاً نجيحا[5]
وشيكِ الفصول بطيءِ الفضول إلا مشاحاً به أو مُشيحا[6]

5 - دفاعه عن عثمان يوم الدار:

كان ابن الزبير من الذين كانوا مع عثمان بن عفان يوم حصر من قبل الغوغاء، وكان يلح على عثمان أن يسمح له بقتال الغوغاء ولكن عثمان كان يرفض ذلك[7]، ولما أمر عثمان من في الدار بالخروج أصر ابن الزبير ومروان بن الحكم على البقاء معه والدفاع عنه[8]، وقد أصيب ابن الزبير أثناء الحصار بإصابات بالغة كادت تودي بحياته، فقد روى المدائني أن كنانة

(1) الكامل في التاريخ (2/ 236، 237).
(2) البداية والنهاية (7/ 158).
(3) السيد: الذئب.
(4) الضراء: ما واراك من الشجر.
(5) نجيحاً: سريعاً.
(6) الشعر والشعراء لابن قتيبة (2/ 653) وشيك الفصول: أي سريع الغزو.
(7) الطبقات (3/ 70) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 41.
(8) تاريخ خليفة، ص: 174.

- مولى صفية بنت حيي - أخرج أربعة محمولين وكان ابن الزبير منهم[1]، وكان ابن الزبير يخطب بمكة ويقول في خطبته: فجرحت بضعة عشر جرحاً وإني لأضع يدي اليوم على تلك الجراحات التي جرحت مع عثمان، فأرجو أن تكون خير أعمالي[2]، وفي هذا وضوح موقف ابن الزبير من عثمان وأنه يراه إمام حق ورشد وأن المعتدين عليه مجرمون وأن قتالهم من أفضل الأعمال عند الله ومنها نستفيد أن الدفاع عن أولياء الصالحين بأي وسيلة شرعية من الذب عن أعراضهم وشدّ أزرهم من الأعمال الصالحة. ومما يدل على أهمية الدور الذي كان يقوم به ابن الزبير في الذود عن عثمان ما ذكرته الروايات من أن عثمان أمّر ابن الزبير يوم الدار وقال: من كانت لي عليه طاعة فليطع عبد الله بن الزبير[3]. وفي رواية: أنه أمره أن يصلي بأهل داره فترة الحصار، وكان ابن الزبير يصلي بهم في صحن الدار[4].

6 - في معركة الجمل:

كان ابن الزبير يوم الجمل على الرجّالة وجُرح يومئذ تسع عشرة جراحة، وقد تبارز يومئذٍ هو ومالك بن الحارث بن الأشتر، فاتّحدا فصرع الأشتر ابن الزبير فلم يتمكن الأشتر من القيام عنه، بل احتضنه ابن الزبير وجعل ينادي ويقول: اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي[5].

فأرسلها مثلاً. ثم تفرّقاً ولم يقدر عليه الأشتر وقد قيل: إنه جرح يومئذ بضعاً وأربعين جراحة ولم يوجد إلا بين القتلى وبه رمق، وقد أعطت عائشة لم بشّرها أنه لمن يقتل عشرة آلاف درهم وسجدت لله شكراً وقد كانت تحبه حباً شديداً، لأنّه ابن أختها، وكان عزيزاً عليها وقد رُوِيَ عن عُروة أنّه قال: لم تكن عائشة تحب أحداً بعد رسول الله ﷺ وأبي بكر مثل حُبّها عبد الله بن الزبير وقال عروة: وما رأيت أبي وعائشة يدعوان لأحد من الخلق مثل دعائهما لابن الزبير[6].

7 - جهاده أيام معاوية ﷺ:

تولى أمر إفريقية معاوية بن حديج، فكان عبد الله بن الزبير ساعده الأيمن بالفتح والجهاد وقد سار معاوية بن حديج في جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل، وفتح بنزرت - سنة أحد وأربعين - كما دخل «القيروان» سنة خمس وأربعين، وبث السرايا في البلاد، وبعث إلى «سوسة» عبد الله

(1) أنساب الأشراف (1/ 564) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 42.
(2) الطبقات نقلاً عن عبد الله بن الزبير للخراشي.
(3) الطبقات (3/ 70).
(4) عبد الله بن الزبير للخراشي، 42، نقلاً عن الطبقات.
(5) البداية والنهاية (11/ 196).
(6) المصدر نفسه (11/ 197).

ابن الزبير ففتحها[1]. وكان عبد الله بن الزبير كذلك في جيش يزيد بن معاوية الذي سار نحو القسطنطينية، وكان في ذلك الجيش عدد من الصحابة أيضاً منهم: أبو أيوب الأنصاري، والحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وابن عباس[2].

سابعاً: وصف ابن الزبير وأهم صفاته:

كان آدم[3] نحيفاً ليس بالطويل، وكان بين عينيه أثر السجود، كثير العبادة مجتهداً شهماً فصيحاً، صوّاماً قوّاماً، شديد البأس ذا أنفة، له نفس شريفة وهمّة عالية، وكان خفيف اللحية ليس في وجهه من الشعر إلا قليلاً، وكانت له جُمة وكان له لحية صفراء[4]، وكان عالماً عابداً مهيباً وقوراً، كثير الصيام والصّلاة شديد الخشوع قويَّ السياسية[5]، وكان لأبيه الزبير وأمه أسماء وخالته عائشة وجده أبي بكر، وجدته صفية عمة رسول الله ﷺ أكبر الأثر على شخصيته من جميع النواحي وهذا ما نلمسه من صفات ابن الزبير التي أهمها:

1 - فقهه وعلمه:

كان عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أحد العبادلة الأربعة الذين تفقهوا في أمور الدين في المدينة المنورة وهم عبد الله بن الزبير وابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم، ولابن الزبير في الصحيحين أحاديث اتفقا له على حديث واحد وانفرد البخاري بستة أحاديث، ومسلم بحديثين[6]، حدث عن رسول الله وهو صغير وكذلك حدث عن أبيه الزبير وعن جده أبي بكر وعمر وعثمان وخالته أم المؤمنين عائشة وغيرهم رضي الله عنهم وروى عنه مشاهير التابعين منهم أخوة عروة، وطاووس بن كيسان وعمرو بن دينار، وابن أبي مليكة، وثابت البناني، وغيرهم كثير[7]، وقد كان رضي الله عنه فقيهاً وقد قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما مات العبادلة عبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص صار الفقه في جميع البلدان إلى الموالي[8]، وعرف ابن الزبير بأنه واسع المعرفة بالقرآن والسنة، وكان رضي الله عنه من العلماء المجتهدين، عالماً عابداً ولا غرور في ذلك إذ كان كثير الدخول على

(1) البيان المغرب (1/ 16 - 17) عبد الله بن الزبير، محمود شاكر، ص: 43.
(2) تاريخ الطبري (6/ 148) عبد الله بن الزبير محمود شاكر، ص: 43.
(3) آدم: أسمر.
(4) البداية والنهاية (11/ 193).
(5) البداية والنهاية (11/ 204).
(6) سير أعلام النبلاء (3/ 363).
(7) المصدر نفسه (3/ 363)، عبد الله بن الزبير محمد عبد الرضا هادي، ص: 9.
(8) معجم البلدان نقلاً عن عبد الله بن الزبير، الناطور، ص: 31.

خالته عائشة، أم المؤمنين، ﷺ، وهي العالمة الفقهية وكانت تحدثه وهو من أحب الناس إليها بعد رسول الله ﷺ، وبعد أبيها أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعنها، وكانت مدة خلافة عبد الله بن الزبير تسع سنوات وقد حج خلالها ثمان مرات، وفي السنة الأخيرة كان محاصراً فلم يستطع الحج. خطب ابن الزبير مرة الحُجّاج فقال: يا معشر الحجاج سلوني فعلينا كان التنزيل ونحن حضرنا التأويل، فقال رجل من أهل العراق: انحلّ جرابي فدخلت فيه فأرة فقتلتها، وأنا محرم، فقال: اقتلوا الفويسقة، فقال: أخبرنا بالشفع والوتر والليالي العشر، فقال: العشر: الشمان وعرفة والنحر، والشفع من تعجّل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه، والوتر: هو هذا اليوم ـ يعني عرفة ـ، ولم يكن أحد أعلم بالمناسك من ابن الزبير في عهده[1]. وقال عنه ابن عباس ﷺ: كان قارئاً لكتاب الله متبعاً لسنة رسول الله ﷺ، قانتاً لله صائماً في الهواجر من مخافة الله ابن حواري رسول الله وأمه بنت الصديق، وخالته عائشة حبيبة حبيب الله زوجة رسول الله ﷺ، فلا يجهل حقه إلا من أعمى الله بصيرته[2]. وكتب في فقهه رسالة علمية للطالب محمد عبد الرضا هادي بالعراق.

2 - عبادته وتقواه:

تواترت الروايات التي تصور لنا حرص ابن الزبير على العبادة من صلاة وصيام وغيرها، حتى أنها أصبحت معالم شخصيته[3]، قال عنه مجاهد: لم يكن أحد يطيق ما يطيقه ابن الزبير من العبادة ﷺ [4] وقال: جاء سيل مرة فطبق أبنية الكعبة فجعل ابن الزبير يطوف سباحة[5]، وكان ابن الزبير ﷺ كثير العبادة إذا قام إلى الصلاة انقطع عن الدنيا ونسي مشاغلها وما فيها من حلو ومر وخرج من كل شيء إليها، فقد روي أن ابن الزبير كان يوماً يصلي فسقطت حية من السقف فطوقت بطن ابنه هاشم فصرخ النسوة وانزعج أهل المنزل واجتمعوا على قتل تلك الحية، فقتلوها وسلم الولد، فعلوا هذا كله وابن الزبير في الصلاة لم يلتفت ولا درى بما جرى حتى سلّم[6]. وقال عنه ثابت البناني: كنت أمر بابن الزبير وهو خلف المقام يصلي كأنّه خشبة منصوبة لا تتحرك[7]، وقال يزيد بن إبراهيم عن عمرو بن دينار، قال: كان ابن الزبير يصلي في الحجر والمنجنيق يصيب ثوبه، فما يلتفت يعني: لما حاصروه[8]، وعن ابن أبي مليكة: قال لي عمر بن عبد العزيز إن في قلبك من ابن الزبير: قلت: لو رأيته ما رأيت مناجياً ولا مصلياً

(1) تهذيب تاريخ ابن عساكر نقلاً عن عبد الله بن الزبير، محمد شاكر، ص: 202.
(2) سير أعلام النبلاء (3/ 367)، البداية والنهاية (11/ 191).
(3) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 32.
(4) البداية والنهاية (11/ 3-19).
(5) البداية والنهاية (11/ 3-19).
(6) البداية والنهاية (11/ 1-19).
(7) سير أعلام النبلاء (3/ 369).
(8) المصدر نفسه (3/ 369).

مثله[1]، وعن ابن أبي مليكة قال: كان ابن الزبير يواصل سبعة أيام، ويصبح في اليوم السابع وهو أليَثُنا[2]. وعلق الذهبي على ذلك فقال: لعله ما بلغه النهي عن الوصال ونبيك ﷺ بالمؤمنين رؤوف رحيم، وكل من واصل، وبالغ في تجويع نفسه، انحرف مزاجه وضاق خلقه، فاتباع السنة أولى، ولقد كان ابن الزبير مع مُلكه صِنفاً في العبادة[3].

3 - جرأته وشجاعته:

كان عبد الله بن الزبير فارس قريش في زمانه، وكان يشتد بالسيف وقد ناهز السبعين كأنه فتى في ربيع العمر، قال عنه عثمان بن طلحة: كان ابن الزبير لا ينازع في ثلاثة لا شجاعة ولا عبادة ولا بلاغة[4]، وعن هشام بن عروة قال: كان أول ما أفصح به عمي عبد الله بن الزبير وهو صغير السيف، فكان لا يضعه من فيه، فكان أبوه إذا سمع ذلك منه يقول: أما والله ليكونن لك منه يوم ويوم وأيام[5]، وكان مشهود له بالشجاعة منذ كان صغيراً، وقد مرّت شجاعته في اليرموك وفي حصار القسطنطينية وفي فتح إفريقية، وفي دفاعه عن عثمان يوم الدار وفي قتاله في الجمل وسيأتي الحديث عن شجاعته أكثر بإذن الله في حصار الحجاج له بمكة وكان يقول: والله إني لا أبالي إذا وجدت ثلاث مئة يصبرون صبري لو أجلب عليّ أهل الأرض[6]، وكان يضرب بشجاعته المثل[7]، وكان ابن الزبير متأثراً بشجاعة أبيه وإقدامه وشجاعة جده الصديق، وأمه وأخواله وعلى رأسهم عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق.

4 - فصاحته وخطابته:

كان ابن الزبير رضي الله عنه لا ينازع وكان من خطباء قريش المعدودين وكان إذا خطب يشبه بجده أبي بكر الصديق رضي الله عنه في حركاته وإشاراته ونبرات صوته وكان صيتاً إذا خطب ويروي أن المسلمين عندما انتصروا على البربر فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا أموالاً وغنائم كثيرة جداً فبعث ابن أبي سرح بالبشارة مع ابن الزبير إلى عثمان فقص على عثمان الخبر وكيف جرى، فقال له عثمان: إن استطعت أن تؤدي هذا للناس فوق المنبر، قال: نعم فصعد ابن الزبير فوق المنبر فخطب وذكر لهم كيفية ما جرى، قال عبد الله: فالتفت فإذا أبي الزبير في جملة من حضر، فلما تبينت وجهه كاد يرتع عليّ في الكلام من هيبته في قلبي، فزبرني بعينه وأشار إلي

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 368).
(2) المصدر نفسه (3/ 368).
(3) المصدر نفسه (3/ 368).
(4) المصدر نفسه (3/ 370)
(5) عبد الله بن الزبير فقيهاً، ص: 14 البداية والنهاية (11/ 208).
(6) سير أعلام النبلاء (3/ 376).
(7) المصدر نفسه (3/ 377).

ليحظني، فمضيت في الخطبة كما كنت، فلما نزلت قال: والله لكأني أسمع خطبة أبي بكر الصديق حين سمعت خطبتك يا بني[1]، وعن محمد بن عبد الله الثقفي قال: شهدت ابن الزبير بالموسم خرج علينا قبل التروية بيوم وهو محرم فلبى بأحسن تلبية سمعتها قط ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنكم جئتم من آفاق شتى وفوداً إلى الله عز وجل فحق على الله أن يكرم وفده فمن كان منكم يطلب ما عند الله فإن طالب ما عند الله لا يخيب فاصدقوا قولكم بفعل فإن ملاك القول الفعل والنية النية، القلوب القلوب، الله الله في أيامكم هذه فإنها أيام تغفر فيها الذنوب، جئتم من آفاق شتى في غير تجارة ولا طلب مال ولا دنيا ترجون هاهنا، ثم لبى ولبى الناس، فما رأيت باكياً أكثر من يومئذٍ[2]، وقال سعيد بن المسيب خطباء قريش في الإسلام: معاوية وابنه وسعيد وابنه وعبد الله بن الزبير[3]، ومن خطبه المشهورة، خطبته في أهل مكة بعد مقتل الحسين ﷺ، وخطبته في الخوارج حين ناظرهم وخطبته بعد مقتل أخيه مصعب في العراق[4]، ومن مواعظه المشهورة ما كتبه لوهب بن كيسان حيث قال: كتب إليّ عبد الله بن الزبير بموعظة: أما بعد فإن لأهل التقوى علامات يُعرفون بها، ويعرفونها من أنفسهم، صدق الحديث، وأداء الأمانة، وكظم الغيظ، وصبر على البلاء ورضي بالقضاء، وشكر للنعماء، وذلّ لحكم القرآن، وإنما الأيام كالسوق ما نفق فيها حمل إليها، إن نفق الحق عنده حمل إليه وجاءه أهله وإن نفق الباطل حمل إليه وجاءه أهله[5]. ولا شك: أن صفة الخطابة والقدرة على الإقناع من أهم الأمور التي يجب أن يتحلى بها أي زعيم، وقد أفاد ابن الزبير من ذلك كثيراً وكانت فصاحته وقدرته الخطابية عاملاً من عوامل نشر أفكاره والقيم التي آمن بها في حياته.

5 - عبد الله بن الزبير ﷺ وجوده:

كان عبد الله بن الزبير كريماً يعطي حقوق الرعية كاملة، ويزيد إلى من يستحق، ولا يدفع إلا بطرق مشروعة، ولكن اتهمه بعضهم بالبخل إذ لم يكن مبذراً يعطي عن يمين وعن شمال من لا يستحق، ولم يكن مسرفاً فلا يدفع إلا قدر الحاجة، ولا يُقدّم للمدّاحين والمتزلّفين، وهم عادة أصحاب ألسنة حادة ومنها تخرج الشائعات الهادفة، غير أن ابن الزبير لم يكن يُبالي بما يُقال، ما دام أنه على الجادة[6]، وقد انساق كثير من الباحثين وراء روايات الخصوم واتهموا ابن الزبير بالبخل وهذا الوصف فيه تجني على حقيقة ابن الزبير، وللأسف أن أصحاب الدراسات الحديثة لم يلتفتوا إلى الروايات الأخرى التي تنفي صفة البخل عن ابن الزبير[7]، والذي يظهر

(1) البداية والنهاية (11/ 194).
(2) المصدر نفسه (11/ 218).
(3) تاريخ ابن عساكر نقلاً عن عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 34.
(4) الكامل في التاريخ (3/ 58).
(5) البداية والنهاية (11/ 219).
(6) عبد الله بن الزبير، محمود شاكر، ص: 02.
(7) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 36.

أن صفة البخل التي وصف بها ابن الزبير كانت بسبب سياسته المالية المتشددة، ذلك أن ابن الزبير كان يتأسى بالخلفاء الراشدين وينظر إلى ما بيده من مال أنه ليس ملكاً له وإنما هو للمسلمين ومن ثمّ لا ينفقه إلا في وجوهه الشرعية[1] فالذين عاشوا في ذلك العصر ورأوا سياسة ابن الزبير المتشددة وقارنوها بسياسة الأمويين في الإنفاق لكسب الأنصار والمؤيدين والشعراء اتهم بعضهم ابن الزبير بالبخل وهذه الآثار تدل على كرم وجود ابن الزبير ﷺ حرصه على أموال المسلمين:

أ - شهادة السيدة عائشة في كرم ابن الزبير: قالت عائشة بنت طلحة خرجت مع أم المؤمنين عائشة وهي خالة عائشة بنت طلحة، فبينما نحن كذلك إذا براجز يقول:

أنشد من كان يعيد الهمّ
يدلني اليوم على ابن أمّ
له أب في باذخ أشمّ
وأمه كالبدر ليل تمّ
مقابل الخال كريم العمّ
جرّعه أكوسه بسمّ

قالت: فلما سمعت أم المؤمنين الأبيات دعت به، فقالت له من وراء حجابها: يا عبد الله سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الدّال على الخير كفاعله**». فحاجتك رجل بين يديك، فسئل عن عبد الله بن الزبير، فإنه شرطك، فخرج الرجل حتى أدرك عبد الله بن الزبير فحمله على راحلة وصنع إليه معروفاً[2].

ب - شهادة معاوية بن أبي سفيان في ابن الزبير ﷺ: سمع معاوية ﷺ رجلاً وهو يقول:

ابن رقاش ماجد سَمَيْدع
يأتي فيعطي عن يدٍ أو يمنع

فقال: ذاك عبد الله بن الزبير[3].

جـ - نابغة بني جعدة وابن الزبير: عن عبد الله بن عروة قال: أقحمت السنة نابغة بني جعْدة فدخل على عبد الله بن الزبير المسجد الحرام فأنشده:

حكيت لنا الصديق لما وليتنا وعثمان والفاروق فارتاح مُعْدِمُ
وسوّيت بين الناس في الحق فاستووا فعاد صباحاً حَالك اللون مظلم

(1) عبد الله بن الزبير، ص: 37.
(2) تاريخ دمشق الكبير (30/ 147).
(3) المصدر نفسه (30/ 147).

أتاك أبو ليلى يجوب به الدُّجى دُجى الليل جوّاب الفلاة عَشمشمُ
لتجبر منه جانباً دعدعتْ به صُروف الليالي والزمان المُصَمّم

فقال ابن الزبير: هوّن عليك أبا ليلى فإن الشعر أهون وسائلك عندنا، أمّا صفوة مالنا فلآل الزبير وأمّا عفوته فإن بني أسد تشغلها عنك، وتيماً، ولكن لك في مال الله حقان: حق برؤيتك رسول الله ﷺ، وحق لشركتك أهل الإسلام في فيئهم، ثم أخذ بيده فدخل به دار النَّعَم، فأعطاه قلائص سبعاً وجملاً رحيلاً، وأوقر له الركاب براً وتمراً وثياباً فجعل النابغة يستعجل ويأكل الحب صِرْفاً، فقال ابن الزبير: ويح أبي ليلى، لقد بلغ الجهد[1]. فهذا الخبر ينفي ما روى عن بخل ابن الزبير ففرق بين البخل والحفاظ على مال المسلمين، فقد بدا واضحاً من كلام عبد الله بن الزبير تبريره حق النابغة الجعدي فيما منحه إياه دون أي اعتبار لما مدحه به من شعر[2].

د - **عبد الله بن عروة ابن أخ ابن الزبير:** جاء في رواية للزبير بن بكار أن عبد الله بن الزبير زوّج ابنته أم حكيم - من ابن أخيه عبد الله بن عروة فأرسل عروة إلى أخيه عبد الله عشرين ألف درهم فردها عبد الله قائلاً: لو أردت المال لوجدته عند غيرك[3].

ر - **حمزة بن عبد الله بن الزبير في سجن أبيه:** قدم حمزة بن عبد الله بن الزبير على أبيه بعد أن عزل من العراق فلما سأله أبوه عن المال أخبره بأنه وزعه على قومه فوصلهم به فقال له ابن الزبير: مال ليس لك ولا لأبيك ثم[4] سجنه وهكذا يتضح حرص ابن الزبير على مال العام، وإنفاقه وكرمه الذي لا تجاوز فيه لشرع الله في الإنفاق.

ثامناً: بيعة ابن الزبير بالخلافة:

بعد موت يزيد بن معاوية لم يكن هناك من خليفة وإذا كان يزيد قد أوصى لابنه معاوية فإن هذا لا يكفي للبيعة، إذ لا بيعة دون شورى، إضافة إلى أن الذين قد بايعوا معاوية بن يزيد لا يزيدون على دمشق وما حولها وأعيان بني كلب. هذا مع أن معاوية بن يزيد لم يعش طويلاً وترك الأمر شورى ولم يستخلف أحدا، ولم يوصي إلى أحد، وكان عبد الله بن الزبير ﷺ قد بويع له في الحجاز، وفي العراق وما يتبعه إلى أقصى مشارق ديار الإسلام، وفي مصر وما يتبعها إلى أقصى بلاد المغرب، وبايعت الشام أيضاً إلا بعض جهات منها، ففي دمشق بايع الضحاك بن قيس الفهري لابن الزبير، وفي حمص بايع النعمان بن بشير، وفي قنسرين زفر بن الحارث الكلابي، وفي فلسطين بايع ناتل بن قيس، وأخرج منها روح بن زنباع الجذامي، ولم

(1) تاريخ دمشق (30/ 146).
(2) موقف الشعر من الحركة الزبيرية، ص: 47.
(3) جمهرة نسب قريش، ص: 265.
(4) جمهرة نسب قريش، ص: 40.

يكن رافضاً بيعة ابن الزبير في الشام إلا منطقة البلقاء وفيها حسان بن مالك بن بحدل الكلبي[1]، وهكذا تمّت البيعة لعبد الله بن الزبير في ديار الإسلام وأصبح الخليفة الشرعي[2]وعين ابن الزبير نوّابه على الأقاليم، وتكاد تجمع المصادر على أن جميع الأمصار قد أطبقت على بيعة ابن الزبير خليفة المسلمين، ولذلك صرّح العديد من العلماء والمؤرخين بأن بيعة ابن الزبير بيعة شرعية، وأنه أولى بها من مروان بن الحكم[3]، فيروي ابن عبد البر عن مالك أنه قال: إن ابن الزبير كان أفضل من مروان وكان أولى بالأمر منه، ومن ابنه عبد الملك[4]. ويقول ابن كثير: ثم هو - أي ابن الزبير - الإمام بعد موت معاوية بن يزيد لا محالة وهو أرشد من مروان بن الحكم حيث نازعه بعد أن اجتمعت الكلمة عليه وقامت البيعة له في الآفاق وانتظم له الأمر[5]، ويؤكد كل من ابن حزم[6]والسيوطي[7] شرعية ابن الزبير ويعتبران مروان بن الحكم وابنه عبد الملك باغيين عليه خارجين على خلافته كما يؤكد الذهبي شرعية ابن الزبير ويعتبره أمير المؤمنين[8]

1 - بيعة ابن الزبير بالحجاز:

كان من الطبيعي أن يكون الحجاز أول المناطق خضوعاً وولاءً لبيعة ابن الزبير لكونه مركز المعارضة ضد بني أمية وقد سارع أهل الحجاز إلى مبايعة ابن الزبير، ويروي ابن سعد أن من الأوائل الذين سارعوا إلى مبايعة ابن الزبير عبد الله بن مطيع العدوي، وعبد الله بن رضوان بن أمية الجمحي والحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، وعبيد بن عمير، وعبيد الله بن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن جعفر[9]، وكان هناك بعض العناصر الذين امتنعوا عن بيعة ابن الزبير وعلى رأسهم ثلاث شخصيات لها مكانتها وتأثيرها لاسيما في الحجاز وهم عبد الله بن عمر ابن الخطاب، وابن عباس، ومحمد ابن الحنفية، وتكاد تجمع المصادر أن أياً من هؤلاء لم يبايع ابن الزبير طيلة حياته[10].

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 373) عبد الله بن الزبير، محمود شاكر، ص: 66.
(2) عبد الله بن الزبير، محمود شاكر 68.
(3) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 117.
(4) الاستيعاب (3/ 910).
(5) البداية والنهاية نقلاً عن عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 117.
(6) المحلى (11/ 98) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 117.
(7) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص: 212 ابن الزبير للخراشي 118.
(8) سير أعلام النبلاء (3/ 363).
(9) أنساب الأشراف (1/ 352)، عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 119.
(10) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 119.

أ - موقف ابن عمر من بيعة ابن الزبير: بايع ابن عمر يزيد بالخلافة، والتزم ببيعته، وحاول إقناع ابن الزبير بذلك، ونهاه عن إثارة الفتنة والخروج على خلافة يزيد[1]، وبعد وفاة معاوية ابن يزيد بويع ابن الزبير بالخلافة، وطلب من ابن عمر أن يبايع له فرفض ابن عمر البيعة معللاً ذلك بقوله: لا أعطي صفقة يميني في فرقة ولا أمنعها في جماعة[2]. ولم يحاول ابن الزبير إجبار ابن عمر على البيعة، كما أن المصادر لم تشر إلى أي صدام أو مواجهة وقعت بين الاثنين[3]، وكان لامتناع ابن عمر على بيعة ابن الزبير تأثير سلبي، فقد كان ابن عمر يتمتع بمكانة عالية وبالأخص في الحجاز وكان تأثيره على الناس، فامتناعه عن البيعة يجعل البعض يقتدي به ويتخذ نفس الموقف، ومما يزيد من تأثيره السلبي على حركة ابن الزبير أن ابن عمر كان يجبر من له طاعة عليهم أن يتخذوا الموقف نفسه الذي يتخذه ومع كل ذلك فلم يكن ابن عمر يشكل خطراً حقيقياً على ابن الزبير فهو لم يكن ذا طموح للخلافة، كما أنه لا يملك أتباعاً يستطيع أن يواجه بهم ابن الزبير كما هو الحال عند محمد ابن الحنفية[4].

ب - ابن عباس وبيعة ابن الزبير: كان ابن عباس يختلف عن ابن عمر في مواقفه إزاء الفتن التي جرت في عصره، حيث خاض فيها وشهد مع علي صراعه ضد خصومه في موقعتي الجمل وصفين، ولما جاء الأمويون للحكم واستخلف معاوية يزيد بادر ابن عباس إلى بيعته، والتزم بها ولم يعرف أنه أيّد ابن الزبير الذي رفض البيعة، وفي نفس الوقت لم يعلن عداءه لابن الزبير، وبدأت العلاقة بين الاثنين تدخل طوراً جديداً بعد وفاة يزيد بن معاوية حيث بويع ابن الزبير بالخلافة سنة 64هـ وعندما طلب ابن الزبير من محمد ابن الحنفية وابن عباس المبايعة قالا: حتى تجتمع لك البلاد ويتسق لك الناس[5]، ووعداه بعدم إظهار الخلاف له[6]. لم يحاول ابن الزبير في بداية الأمر إجبارهما على البيعة، وبدأت العلاقة بين ابن الزبير وابن عباس في تحسن تلمس ذلك في العديد من الروايات التي تدلل على شعور ابن عباس تجاه ابن الزبير والمتمثل في تأييده لبعض مواقفه[7]، أو في الثناء المباشر عليه[8]، ويروي عبد الرزاق في مصنفه أن ابن عباس كان قاضياً لابن الزبير بمكة، إلا أن العلاقة بينهما تعكرت، وقد

(1) مصنف ابن أبي شيبة (15/ 84).
(2) أنساب الأشراف (1/ 352)، عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 120.
(3) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 121.
(4) المصدر نفسه، ص: 122.
(5) الطبقات (5/ 100).
(6) البداية والنهاية نقلاً عن عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 125.
(7) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 125 الفتح الرباني للبنا (3/ 167).
(8) تاريخ ابن عساكر نقلاً عن عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 125.

وردت عدة روايات تدل على مظاهر تردي العلاقة بين الاثنين وإن كانت في مجموعها لا تخرج عن نطاق المناقشات الحادة[1]. ونظراً لتوافق ابن عباس مع محمد ابن الحنفية في رفض بيعة ابن الزبير وتنامي خطر الأخير فقد انتهى الأمر بخروج ابن عباس إلى الطائف وبقي هناك إلى أن توفي[2]. وكان ابن عباس يثني على ابن الزبير، فعندما ذكر عنده قال ابن عباس: قاريء لكتاب الله، عفيف في الإسلام، أبوه الزبير، وأمه أسماء وجده أبو بكر، وعمّتُه خديجة، وخالته عائشة وجدّته صفية[3].

جـ - **ابن الحنفية وبيعة ابن الزبير**: كان المبدأ الذي صرح به ابن الحنفية بعد وفاة يزيد أن لا يبايع أحداً إلا في حالة اجتماع الناس عليه[4]، لم يحاول ابن الزبير في بداية الأمر إكراه ابن الحنفية على البيعة ولم يستمر ابن الزبير في سياسته اللينة مع ابن الحنفية، فبعد أن علا شأن ابن الزبير وجاءته بيعة الأمصار، وكادت الأمة أن تجتمع عليه، أحس أن الوقت قد حان لأن يبايع ابن الحنفية بناء على وعده فعاود الكرّة مرّة أخرى ودعاه إلى البيعة سنة 65هـ ولكن ابن الحنفية أبى أن يبايع فلجأ ابن الزبير إلى حبسه في الشعب[5]، ويبدو أن ابن الزبير تخوّف من دعوة المختار بن أبي عبيد الثقفي بالكوفة، فقد كان المختار من أشد المدافعين عن ابن الزبير أيام حوصر في مكة سنة 64هـ من قبل جيش الحصين بن نمير السكوني، وكان المختار بالإضافة إلى شجاعته وجرأته يتمتع بمكر ودهاء كبيرين ويحمل بين جنبيه طموحات عالية للزعامة[6]، لم يجد المختار عند ابن الزبير ما يحقق طموحاته، فأخذ يبحث عن مكان آخر يمكن أن يحقق فيه ما تصبو نفسه إليه، فترك مكة بعد ستة أشهر من نهاية الحصار الأول ووصل العراق في رمضان 64هـ واستطاع عن طريق ادعائه نصرة آل البيت ورفع شعار الأخذ بثأر الحسين أن يجتمع حوله الأنصار والمؤيدون والناقمون على حكم بني أمية، واستطاع أن يستولي على الكوفة[7]، وكان المختار على علم بما جرى بين ابن الزبير وابن الحنفية في أمر البيعة، وأراد أن يستغل هذا الموقف لصالحه وادعى أنه موفد من محمد ابن الحنفية للأخذ بثأر آل البيت، والواقع أن ابن الحنفية تبرأ من المختار وأنكر أن يكون قد أرسله إلى العراق[8]، ودعت

(1) الفتح الرباني للساعاتي (12/ 98) أخبار مكة (2/ 72).
(2) سير أعلام النبلاء (3/ 358).
(3) سير أعلام النبلاء (3/ 367).
(4) مصنف ابن أبي شيبة (15/ 73)، عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 127.
(5) تاريخ خليفة، ص: 262.
(6) تاريخ الطبري نقلاً عن عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 129.
(7) تاريخ خليفة، ص: 263.
(8) الطبقات (5/ 98).

الشيعة بالكوفة إلى ابن الحنفية، فخاف ابن الزبير أن تفتح بذلك جبهة جديدة عليه مما يزيد الأمر خطورة وتعقيداً[1]، وأرسل المختار جيشاً في عام 66هـ إلى مكة في موسم الحج واستطاع أن يخلص ابن الحنفية من سجنه، ومنع ابن الحنفية الجيش من قتال ابن الزبير لكونه لا يستحل القتال في الحرم[2]، والواقع إن ابن الحنفية أصبح يشكل خطراً على ابن الزبير بعد وصول نجدة العراق وتروي المصادر أنه كان لابن الحنفية لواء في الحج ينافس فيه لواء ابن الزبير[3]، أما بالنسبة لابن الزبير فقد أحس أن مصدر قوة ابن الحنفية يكمن في مساندة المختار ابن أبي عبيد له، ولذلك فكر في القضاء عليه، فأرسل أخاه مصعباً والياً على البصرة، وأمره أن يقاتل المختار وفعلاً استطاع مصعب بن الزبير أن يقضي على المختار في الرابع عشر من رمضان سنة 67هـ[4] أدى مقتل المختار إلى تضعضع موقف ابن الحنفية بمكة، ويروي ابن سعد أن ابن الزبير أرسل إلى ابن الحنفية أخاه عروة يطلب منه أن يبايع وهدده بالحرب إن هو أصر على رفض البيعة[5]. ولاحت لابن الحنفية في هذه الأثناء فرصة رأى فيها مخرجاً من ضغوط ابن الزبير تمثلت في دعوة عبد الملك بن مروان له بأن يقدم إلى الشام، فاغتنم ابن الحنفية هذه الفرصة وتوجه إلى الشام هو وأتباعه، واختاروا المقام بأيلة[6]، وهذه البلدة وإن كانت من بلاد الشام منطقة نفوذ عبد الملك بن مروان إلا أنها في أطرافها نحو الحجاز وأصبح تقريباً في منطقة بعيدة عن الاثنين معاً، ولكن اتضح أن نوايا عبد الملك لم تكن تختلف عن نوايا ابن الزبير، فعرض عليه البيعة مقابل أموال وأعطيات سخية أو الخروج من بلاد الشام، وآثر ابن الحنفية الخروج على البيعة حيث اشترط ذلك على ابن الزبير من قبل. وأراد ابن الحنفية العودة إلى مكة ولكن ابن الزبير منعه من دخولها فتوجه بمن معه إلى الطائف وقيل المدينة وبقي بها إلى أن قتل ابن الزبير سنة 72هـ[7].

2 - بيعة ابن الزبير في العراق:

أدت وفاة يزيد بن معاوية إلى اضطراب الوضع في العراق ونشوب النزاع بين قبائله المختلفة حول السلطة، وهرب عبيد الله بن زياد إلى الشام، وخرج الخوارج قبل هروبه من السجن وبدأوا بإشاعة الفوضى والفساد، وبعد فتن وقتال اتفقت القبائل بالبصرة على أن يتولى

(1) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 130.
(2) أنساب الأشراف نقلاً عن عبد الله بن الزبير، ص: 131.
(3) الطبقات (5/ 3) تاريخ خليفة، ص: 263.
(4) تاريخ خليفة، ص: 264، عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 131.
(5) الطبقات (5/ 106).
(6) أيلة : مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام.
(7) الطبقات (5/ 107، 108).

عبد الله بن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب الأمر[1]، ثم شرع ابن الزبير في تعيين نوابه بعد بيعة أهل البصرة له إلى أن استقر على ولايتها أخوه مصعب وعين أهل الكوفة عامر بن مسعود ابن خلف القرشي[2] وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير فأقره. وهذا التصرف يعد في حقيقته إقرار أهل الكوفة بخلافة ابن الزبير[3]، وتعامل أهل البصرة وأهل الكوفة مع ابن الزبير، كخليفة للمسلمين[4]، وقد ساعدت عوامل عديدة على نشر بيعة ابن الزبير بالعراق، من أهمها، الفراغ السياسي في السلطة، بعد وفاة يزيد بن معاوية، وهروب عبيد الله بن زياد إلى الشام، كما أن التنافس القبلي على السلطة، واشتداد شوكة الخوارج وتهديدهم للأمن ساهم في حث أهل العراق على توحيد كلمتهم والانضواء تحت لواء ابن الزبير[5].

3 - بيعة ابن الزبير في الشام:

بعد وفاة معاوية بن يزيد وفي مناخ الشام المشوب بالفوضى والاضطراب وجدت بيعة ابن الزبير منفذاً لها في بلاد الشام، لاسيما وأن أخبار صمود ابن الزبير أمام جيش الحصين بن نمير في الحصار الأول، وبيعة أهل الحجاز له، قد تنامت إلى بلاد الشام، ويصور لنا البلاذري موقف أهل الشام من بيعة ابن الزبير في تلك الظروف فيقول: فلما مات معاوية بن يزيد - مال أكثر الناس إلى ابن الزبير وقالوا: هو رجل كامل السن، وقد نصر أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وهو ابن حواري رسول الله ﷺ، وأمه بنت أبي بكر بن أبي قحافة وله فضل في نفسه ليس لغيره، وتكاد تجمع المصادر على بيعة جميع أقاليم أهل الشام ما عدا الأردن، فقد بايع زفر بن الحارث الكلابي[6] بقنسرين، وبايع النعمان بن بشير الأنصاري[7]، بحمص، واستطاع نائل بن قيس الجذامي[8] أن يسيطر على فلسطين ويدعو فيها لابن الزبير، ودعا الضحاك بن قيس الفهري لابن الزبير في دمشق[9]، وعين ابن الزبير الضحاك بن قيس والياً على الشام[10]، وهذه هي أهم الأقاليم التي بايعت ابن الزبير.

(1) تاريخ خليفة، ص: 258، عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 135.
(2) أنساب الأشراف (1/ 400) عبد الله بن الزبير، ص: 134.
(3) عبد الله بن الزبير، ص: 134.
(4) تاريخ الطبري نقلاً عن عبد الله بن الزبير، ص: 136.
(5) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 136.
(6) الأعلام للزركلي (3/ 45).
(7) الأعلام للزركلي (8/ 36).
(8) المصدر نفسه (7/ 343).
(9) الطبقات (5/ 38) الإعلام (2/ 244).
(10) أنساب الأشراف (5/ 132) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 141.

4 - موقف الخوارج من بيعة ابن الزبير:

تحالف الخوارج مع ابن الزبير في الدفاع عن مكة حتى وفاة يزيد، فلما زال الخطر، دخل عليه قادتهم فأرادوا معرفة رأيه في عثمان بن عفان ﷺ، فأجابهم فيه بما يسوءهم وذكر لهم ما كان متصفاً به من الإيمان والتصديق، والعدل والإحسان والسِّيرة الحسنة والرُّجوع إلى الحق إذا تبين له، فعند ذلك نفروا منه وفارقوه وقصدوا بلاد العراق وخراسان، فتفرقوا فيها بأبدانهم وأديانهم ومذاهبهم ومسالكهم المختلفة المتشرة التي لا تنضبط ولا تحصر، لأنها مفرّعة على الجهل وقوة النُّفوس والاعتقاد الفاسد، ومع هذا استحوذوا على كثير من البُلدان[1]، وتصدّى لقتالهم الفارس الهمام، البطل الكبير المهلب بن أبي صفرة، فقد كتب ابن الزبير له بأن يتولى حربهم فاستجاب لذلك، وكان على رأس الخوارج الأزارقة نافع بن الأزرق واستطاع المهلب أن يهزمهم وقتل أميرهم نافع بن الأزرق وانهزمت الخوارج نحو فارس[2]، وتسربت شائعات إلى أهل البصرة بأن المهلب قتل، فاضطرب المصر وهمّ أميرهم الحارث بن أبي ربيعة أن يهرب، وأقبل البشير إلى أهل البصرة بسلامة المهلّب، فاستبشروا بذلك واطمأنّوا وأقام أميرها بعد أن همّ بالهرب، وبلغ عبد الله بن الزبير ما كان من عزم عامله بالبصرة من الهرب، فعزله وولى أخاه مصعباً، فسار مصعب حتى قدمها وتولّى أمر جميع العراقين وفارس والأهواز، ومما قيل من الأشعار في قتال المهلب للخوارج الأزارقة:

إنّ ربًّا أنجى المهلّب ذا الطول ... لأهلٌ أن تحمدوه كثيراً
لا يزال المهلّب بن أبي صفرة ... ما عاش بالعراق أميراً[3]

وقال رجل من الخوارج في قتل نافع بن الأزرق:

إن مات غير مداهن في دينه ... ومتى يمر بذكر نار يصعق
والموت أمر لا محالة واقع ... من لا يصبحه نهاراً يطرق
فلئن منينا بالمهلب إنّهُ ... لأخو الحروب وليث أهل المشرق[4]

المبحث الثاني

خروج مروان بن الحكم على ابن الزبير

أولاً: اسمه ونسبه وحياته قبل خروجه على ابن الزبير:

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، الملك أبو عبد

(1) البداية والنهاية (11/ 667، 668).
(2) الأخبار الطوال، ص: 249، 250.
(3) المصدر نفسه، ص: 251.
(4) المصدر نفسه، ص: 251.

الملك القرشي الأموي[1]، يكنى أبا القاسم وأبا الحكم، ولد بمكة وهو أصغر من ابن الزبير بأربعة أشهر، روى عن عمر وعثمان وعلي وزيد وروى عنه سهل بن سعد، وسعيد بن المسيب، وعلي بن الحسين، وعروة، وأبو بكر بن عبد الرحمٰن، وعبيد الله بن عمر، ومجاهد ابن جبر، وابنه عبد الملك. وكان كاتب ابن عمه عثمان ودافع عن عثمان يوم الدار، وسأل عنه علي بن أبي طالب يوم الجمل وقال: يعطفني عليه رحم ماسة، وهو مع ذلك سيد من شباب قريش[2]، وكان يتتبع قضاء عمر[3]، وتولى ولاية المدينة في عهد معاوية وكان الحسن والحسين يصليان خلف مروان ولا يعيدان[4]، وكان إذا وقعت معضلة - أثناء ولايته على المدينة - جمع من عنده من الصحابة فاستشارهم فيها، وهو الذي جمع الصيعان فأخذ بأعدلها، فنسب إليه فقيل صاع مروان[5]، وكان ذا شهامة وشجاعة ومكر ودهاء[6]، وقد ذكرت شيئاً من سيرته في كتابي عن عثمان بن عفان ﷺ وكان شديد الحب لبني أمية، متحمساً لبيعة يزيد بن معاوية ولما توفي يزيد خرج مروان وبنو أمية من المدينة إلى الشام بصحبة الجيش الأموي الراجع من حصار مكة الأول وكان خروج بني أمية برغبتهم[7]، ولم يبايع مروان ابن الزبير والتف زعماء القبائل وبنو أمية الموجودين بالشام حوله وبايعوه، وكان يحمل بين جنبيه طموحات للزعامة وكانت هذه الطموحات مع رغبته في بقاء الخلافة في البيت الأموي هو الدافع لخروجه على ابن الزبير، وخير دليل على ذلك إقدامه على مبايعة ابنيه من بعده عبد الملك، وعبد العزيز - بولاية العهد[8]، وهناك روايات تذكر أن مروان بن الحكم كان قد عزم على مبايعة ابن الزبير لولا أن تدخل عبيد الله بن زياد وغيره في آخر لحظة وثنوه عن عزمه وأقنعوه أن يدعو لنفسه[9]، والواقع وإن كنا لا نستبعد أن يكون مروان قد فكر في ذلك الأمر لاسيما بعد انتشار بيعة ابن الزبير في معظم الأقاليم مع تفرق كلمة بني أمية في بلاد الشام، وضعف موقفهم إلا أننا لا نعتبر ذلك مناقضاً لما ذهبنا إليه، لأن العبرة ليست فيما عزم عليه مروان بن الحكم، وإنما في الموقف الذي اتخذه وهو رفض بيعته لابن الزبير ومحاربته[10] والخروج عليه، ولقد سار مروان في محاربته لابن الزبير على الخطوات التالية:

1 - القضاء على أنصار ابن الزبير بالشام، وأهم الأحداث بالشام كان مؤتمر الجابية ومعركة مرج راهط.

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 476).
(2) المصدر نفسه (3/ 477).
(3) المصدر نفسه (3/ 477).
(4) المصدر نفسه (3/ 478).
(5) البداية والنهاية، نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 140.
(6) سير أعلام النبلاء (3/ 477).
(7) عبد الله بن الزبير للخراسي، ص: 146.
(8) الطبقات (5/ 226)، عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 151.
(9) الطبقات (5/ 40) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 152.
(10) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 152.

2 - إعادة مصر إلى الأمويين.
3 - محاولة إعادة العراق والحجاز.
4 - تولية العهد لعبد الملك وعبد العزيز.

ثانياً: القضاء على أنصار ابن الزبير بالشام ولهمية مؤتمر الجابية ومعركة مرج راهط:

بدأ مروان بن الحكم - بعد أن تزعم المعارضة الأموية - بتوحيد صفوفه والدخول في صراع ضد ابن الزبير، ولم يبدأ مروان بمواجهة ابن الزبير في الحجاز وإنما لجأ إلى انتزاع الأقاليم البعيدة وذلك ليحسر نفوذه أولاً ومن ثم يتيسر له القضاء عليه[1]، وجاء مروان بن الحكم إلى الحكم بعد عقد مؤتمر الجابية لأهل الشام، ولأهمية مؤتمر الجابية إليك تفصيل ما جرى فيه:

1 - مؤتمر الجابية:

ظلت الأردن موطن الكلبيين على ولائها للأسرة الأموية، وكان بعض زعماء الشام حريصاً على الاحتفاظ بالخلافة في الشام دون غيرها، ومثال ذلك الحصين بن نمير الذي عرض على ابن الزبير مبايعته بشرط الانتقال للشام، ويبدو أن تمسك بعض زعماء أهل الشام باستمرار دمشق مركزاً للخلافة لم يكن أمراً عاطفياً غير مبرر، بل كان يستند إلى قناعة أكيدة، أثبتت الأيام صدقها، بمقدرة أهل الشام على تحقيق الحسم التاريخي، وبعمق الالتحام بين بنائها القبلي اليماني، والوجود الأموي بها، رغم ما تعرضت له الوحدة القبلية لأبناء الشام من هزات عنيفة وتشقق مريع، حيث أفرزت الأحداث السياسية السريعة آنذاك صراعاً عنيفاً بين القبائل القيسية واليمانية ظل يرسل انعكاساته على الحياة السياسية بعد ذلك، فقد بايع القيسيون في شمال الشام ابن الزبير المرشح الوحيد الظاهر القوة والقبول في هذه المرحلة، وازدادت قوة القيسيين بانضمام الضحاك بن قيس الفهري إليهم، وهو الرجل الذي أمضى تاريخه كله في الشام وفي خدمة معاوية وابنه يزيد، والذي كان يُشرف آنذاك على شئون دمشق منذ وفاة معاوية الثاني، بينما تشبث الكلبيون رغم الضعف الظاهري لمواقفهم في ظل هذه البيعة الجماعية لابن الزبير حتى من إخوانهم الشماليين والمصاهرة بينهم وبين الأمويين منذ تزوج معاوية منهم[2] وتربى فيهم يزيد[3]. . ولكن الكلبيين فيما عدا ذلك يختلفون فبينما يهوى بعضهم البيعة لخالد بن يزيد بن معاوية، وهو غلام صغير السن، يتكتف بعضهم من البيعة لغلام، في الوقت الذي يدعو فيه الآخرون إلى شيخ قريش عبد الله بن الزبير - ويفضل هذا

(1) عبد الله بن الزبير، ص: 152.
(2) تاريخ الطبري (6/ 246).
(3) المصدر نفسه (6/ 246).

الفريق البيعة لمروان بن الحكم، وبعد محاولات لرأب الصدع بين القيسية واليمنية اتفق الطرفان على الالتقاء في الجابية[1] للتشاور والاتفاق، فسار الكلبيون والأمويون إلى هناك، على حين غلب بعض أنصار ابن الزبير الضحاك بن قيس على رأيه فأطاعهم ومال نحو مرج راهط[2].

أ - الممارسة الشورية في مؤتمر الجابية: في الجابية عقد الكلبيون مؤتمرهم وتشاوروا في أمر البيعة والخلافة، وكان مؤتمر الجابية مؤتمراً تاريخياً يمكن أن يوصف باللغة السياسية بأنه كان مؤتمراً دستورياً، وقد حضره أصحاب الشوكة والقوة والرأي من أهل الشام وتمت الدعوة إليه بالرضا من عناصر أهل الشام المؤثرة في القرار المصيري ونستطيع أن نلاحظ صورة لهذه التجربة الشورية النادرة حين نتصور أن أسماء المرشحين الآخرين للخلافة غير بني أمية قد عرضت للبحث، ولكن رجحت كفة مروان لعوامل كما يصور ذلك روح بن زنباع الجذامي أحد زعماء الشام. حيث قال: أيها الناس إنكم تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب وصحبته من رسول الله، وقدمه في الإسلام، وهو كما تذكرون، ولكن ابن عمر رجل ضعيف، وليس بصاحب أمة محمد الضعيف، وأما ما يذكر الناس من عبد الله بن الزبير ويدعون إليه من أمره، فهو والله كما يذكرون، إنه لابن الزبير، ، حواري رسول الله وابن أسماء ابنة أبي بكر الصديق، ذات الناطقين، وهو بعد كما تذكرون في قدمه وفضله، ولكن ابن الزبير منافق قد خلع خليفتين، يزيد وابنه معاوية بن يزيد، وسفك الدماء وشق عصا المسلمين، وليس بصاحب أمر أمة محمد منافق، وأما مروان بن الحكم فوالله ما كان في الإسلام صدع قط إلا كان مروان بن الحكم ممن يشعب ذلك الصدع، وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار، وهو الذي قاتل علي بن أبي طالب يوم الجمل، وإنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير، ويستشبّوا الصغير، يعني بالكبير مروان بن الحكم وبالصغير خالد بن يزيد بن معاوية، فاجتمع رأي الناس على البيعة لمروان ومن بعده لخالد بن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص بعد خالد[3]، فكانت تلك المعادلة هي التي جمعت بين مختلف الآراء وأرضت جميع الاتجاهات[4]، وقد دارت نقشات كثيرة، وكان العديد من زعماء القبائل وقادة بني أمية قد حضروا. ومن هؤلاء الزعماء: حسان بن مالك بن بحدل الكلبي والحصين بن نمير السكوني، وروح بن زنباع الجذامي[5]، ومالك بن هبيرة السكوني، وعبد الله بن مسعدة الفزاري، وعبد الله بن عضاة

(1) الجابية : بلدة من أعمال دمشق من ناحية الجولان، الحموي (33/ 33).
(2) تاريخ الطبري نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 266.
(3) تاريخ الطبري (6/ 472).
(4) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 296.
(5) تاريخ الطبري (6/ 472).

الأشعري، وغيرهم من الشخصيات المؤثرة[1] والمعارضة لابن الزبير، وقد قلبت آراء عديدة وكثيرة حتى استقر الرأي على مروان[2]، ولم يمتنع مروان عن تقديم امتيازات لقبائل كلب وكندة لكي يستميلهم، وكانت له اتفاقات سرية وخاصة مع بعض الزعماء مما كان له الأثر الكبير في كسب المؤيدين له، فمروان خطط واستطاع بشتى الطرق الوصول إلى الحكم في بلاد الشام رغم الظروف الصعبة آنذاك[3].

ب - **أهم قرارات مؤتمر الجابية:** كانت أهم قرارات مؤتمر الجابية، عدم مبايعة ابن الزبير، استبعاد خالد بن يزيد من الخلافة لأنه غلام والعرب لا تحب مبايعة الأطفال من ناحية، ومن الناحية الأخرى هم الآن في أزمة وهم أحوج إلى الرجل المجرب الخبير علّه يقودهم إلى النصر وينقذهم من وضعهم المتدهور، مبايعة مروان بن الحكم وهو الشيخ المحنك، أن يتولى الخلافة بعد مروان على هذا الشرط شفوياً، الاستعداد لمجابهة وقتال المخالفين، اتباع ابن الزبير في الشام بادي الأمر[4].

جـ - **زعامة مروان لمعارضي أهل الشام قامت على الشورى:** قامت زعامة مروان لمعارضي ابن الزبير على أساس الشورى، إذ انتخب بالاختيار الحر من الذين شهدوا المؤتمر وهم أهل الحل والعقد والشوكة والقوة في الشام، وبويع بإجماع الحاضرين، فكانت طريقة توليته شورية دستورية اتخذتها المعارضة لتقوية صفها، وبذلك صار في العالم الإسلامي إذ ذاك خليفتان عبد الله بن الزبير الخليفة الشرعي والمنتخب من قبل الأغلبية الساحقة للأمة، والزعيم المعارض لابن الزبير والمنتخب من أهل الشوكة والقوة في عاصمة الخلافة ولما كان لابد من توحيد الدولة الإسلامية فقد كان على أحدهما أن يتغلب على الآخر ويتم التوحيد ويجمع كلمة الأمة، فكانت الحروب والمعارك الطاحنة فيما بعد حتى استقر الأمر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل الخليفة الشرعي عبد الله بن الزبير ﷺ، ويبدو أن أهل الشام الذين عارضوا ابن الزبير واجتمعوا بالجابية قد ذهبوا إلى أن بيعة أهل الشوكة والقوة من عاصمة الخلافة ملزم لبقية الأقطار والأمصار كلها وعلى الآخرين أن يسلموا لمن بايعوه لئلا يتشتر الأمر باختلاف الآراء وتباين الأهواء[5]، وقد نسب ابن حزم هذا الرأي لأهل الشام قائلاً: كانوا قد ادعوا ذلك لأنفسهم حتى حملهم ذلك على بيعة مروان وابنه عبد الملك واستحلوا بذلك دماء أهل الإسلام[6].

---

(1) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 147.
(2) تاريخ الطبري (6/ 471، 472).
(3) الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، إسماعيل الجبوري، ص: 46، 47.
(4) عبد الله بن الزبير للناطور، ص: 132.
(5) الأحكام السلطانية للماوردي، ص: 6.
(6) الفصل في الملل والنحل (4/ 168).

والصحيح بالنسبة لعهد ابن الزبير هو الأخذ بمبدأ الأكثرية أو الأغلبية، وإن كان حجية إقرار بيعة أهل عاصمة الخلافة أخذ به في بيعة الصديق والفاروق وذي النورين والحسن بن علي، إلا أن الأمور قد تغيرت كثيراً، فالأخذ بمبدأ الأكثرية للترجيح في تنازع قد قرره الإمام الغزالي حيث قال: يتم الترجيح بينهم بتقديم من انعقدت له البيعة من الأكثر والمخالف للأكثر باغ يجب رده إلى الانقياد إلى الحق[1]. وذلك هو الرأي الذي نؤيده، لأن حسم النزاع بترجيح أكثرهم حوزاً لرضا المسلمين هو ما يقضي به مبدأ حق الأمة الإسلامية في اختيار الخليفة[2]، فضلاً عن الأدلة الشرعية المؤكدة لترجيح رأي الأكثرية أو الأغلبية نذكر منها: إن الرسول ﷺ قد أخذ بما انعقد عليه رأي أغلبية المسلمين وإن بدا مخالفاً لرأيه، وذلك حيث علم بتحريك قوات المشركين في اتجاه المدينة لحربهم، فاستشار المسلمين فرأى فريق منهم وكان أكثرهم الخروج إليهم، وفريق آخر رأى ما رآه الرسول نفسه وهو أن يظلوا بالمدينة، فلما رأى الرسول أن رأي الأغلبية مع الخروج أخذ برأيهم ووافق على الخروج للمشركين في أحد[3]، وغير ذلك من الأدلة، وقد أخذ مشروع الدستور الإسلامي الذي أعده مجمع البحوث الإسلامية والأزهر بفكرة الإلزام برأي الأغلبية حيث نصت المادة (46) منه على أن تكون البيعة بالأغلبية المطلوبة لأصوات المشتركين في البيعة[4].

2 - معركة مرج راهط:

تمخّض مؤتمر الجابية عن انتقال الخلافة الأموية من البيت السفياني إلى البيت المرواني، وانعقدت البيعة لمروان وحل مؤتمر الجابية، مشكلة الخلافة بين بني أمية - وكانت هذه خطوة حاسمة، ولكن لم يكن تثبيت هذا الأمر سهلاً فلا زالت تعترضه صعوبات كبيرة، فالضحاك بن قيس، زعيم القيسين المناصر لابن الزبير قد ذهب إلى مرج راهط وانضم إليه النعمان بن بشير الأنصاري والي حمص وزفر بن الحارث الكلابي، أمير قنسرين، وكان واضحاً أنهم يستعدون لمواجهة الأمويين فكان على مروان أن يثبت أنه أهل للمسئولية وحمل أعباء الخلافة، والدفاع عنها وقد حقق أنصار مروان أول نجاح لهم بالاستيلاء على دمشق وطرد عامل الضحاك عنها، وكان أول فتح على بني أمية على حد تعبير ابن الأثير[5] ولم يضيع مروان وقتاً، فقد عبأ أنصاره من قبائل اليمن في الشام. كلب وغسان والسكاسك والسكون، وجعل على ميمنته، عمرو بن

(1) الفصل في الملل والنحل (4/ 168).
(2) نظام الحكم في الإسلام، د. أحمد عبد الله، ص: 131.
(3) المصدر نفسه، ص: 131.
(4) نحو دستور إسلامي، محمد سيد أحمد، ص: 173، نظام الحكم في الإسلام، د. أحمد عبد الله، ص: 132.
(5) الكامل لابن الأثير (2/ 618).

سعيد، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد، واتجه إلى مرج راهط، فدارت المعركة الشهيرة التي حسمت الموقف في الشام لبني أمية ومروان حيث هزم القيسيون، أنصار ابن الزبير، وقتل الضحاك بن قيس، وعدد كبير من أشراف قيس في الشام، واستمرت المعركة حوالي عشرين يوماً، وكانت في نهاية سنة 64 هـ ، وقيل في المحرم سنة 65 هـ[1].

أ - نتائج مرج راهط: - أعادت هذه المعركة الملك لبني أمية بعد أن كان مهدداً بالزوال، وحوّلت السلطة من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني.

- تخلص الأمويين من الضحاك بن قيس الذي كان يعتبر معارضاً قوياً للأمويين، وتابعاً مخلصاً لابن الزبير.

- سقطت قنسرين في يد الأمويين وهرب واليها زفر بن الحارث فتوجه إلى قرقيسيا وكان عليها عياض الحرثي حسب قول ابن الأثير.

- سقطت فلسطين وهرب ناتل بن قيس الجذامي إلى ابن الزبير.

- سقطت حمص وقتل واليها النعمان بن بشير[2].

- اندلع الصراع بين اليمنية والقيسية ودخلت العصبية القبلية مسرح السياسة العليا للدولة وإذا كان يوم مرج راهط قد انتصر فيه الكلبيين فقد كان نصراً مؤقتاً، وكان الصراع بين العصبتين القيسية واليمنية من أسباب انهيار الدولة الأموية[3].

ب - أسباب هزيمة القيسيين: لم يرم ابن الزبير بثقله في تلك المعركة وكان عليه أن يجيش الجيوش ويمد أتباعه بالرجال والأموال والسلاح ليقضي على المعارضين بالشام عندما كانت المعارضة لم توحد صفوفها بعد.

- اعتماد مروان على رجال دهاة خبراء في الحرب من أمثال حصين بن نمير وعمرو بن سعيد.

- عدم اشتراك أتباع ابن الزبير في الشام كلهم، فقد شارك ولاة الشام التابعين لابن الزبير بأعداد من الجنود فقط.

- ترك الضحاك مدينة دمشق بدون قوة تستطيع المحافظة عليها رغم أهميتها، وهذا سهل للأمويين الاستيلاء عليها وعلى ما فيها من أموال مكنت الأمويين من الاستفادة من هذا الخطأ[4].

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 473)، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 143.

(2) الكامل لابن الأثير (2/ 618) ابن الزبير للناطور، ص: 137.

(3) تاريخ خلافة بني أمية، نبيه عاقل، ص: 130.

(4) عبد الله بن الزبير للناطور، ص: 138.

جـ - بكاء مروان بن الحكم في مرج راهط: وروي أن مروان بن الحكم لما جيء برأس الضحاك إليه ساءه ذلك وقال: الآن حين كبرت سني ودق عظمي، وصرت في مثل ظمء الحمار[1]، أقبلت بالكتائب أضرب بعضها ببعض[2] وروي أنه بكى على نفسه يوم مرج راهط[3]: أبعد ما كبرت وضعفت صرت إلى أن أقتل بالسيوف على الملك[4] وفي رواية عن مالك قال: قال مروان: قرأت كتاب الله منذ أربعين سنة، ثم أصبحت فيما أنا فيه من إهراق الدماء، وهذا الشأن[5]. إن ندم مروان في مثل هذا الموقف وبعد أن تحقق له، وتأكدت له طرق الحكم، وتمهدت له سبل الوصول إلى غايته لدليل قاطع على ما كان يجيش به قلب مروان من عامل الخير، لقد كان هذا النصر جديراً أن ينسيه كل منغصات الحياة، وكان فوزه بالخلافة حقيقاً بأن ينفي عنه كل ما يسبب له الندم، ويعكر له الصفو، فما بال مروان يندم وهو في هذه الظروف التي تزيل الهم عن النفس وتبعد الندم[6]، لطالبي الملك والزعامة والسلطان وأغلب الظن أنه تورط في طلبه للخلافة، ودفعه إلى هذا المستنقع الآسن أناس لهم مصالح دنيوية لا تخفى، فشعر بوخز الضمير وخاف على نفسه من سوء الخاتمة بعد أن ولغت يده في دماء المسلمين من أجل الحطام الزائل.

ثالثاً: ضم مصر إلى الدولة الأموية ومحاولة إعادة العراق والحجاز:

مكّن انتظار مروان في معركة مرج راهط لدولته في الشام فبسط نفوذه عليها، وكانت خطواته التالية المسير إلى مصر لاستردادها من عامل ابن الزبير، وكانت هذه خطوة تدل على ذكاء مروان، فلمصر أهميتها الكبيرة واستيلاؤه عليها يدعم موقفه في مواجهة ابن الزبير، ولم يكن استيلاؤه عليها صعباً، فمعظم المصريين هواهم مع بني أمية، وبيعتهم لابن الزبير لم تكن خالصة وإنما كانت بيعة ضرورة[7]، ودعا مروان شيعة بني أمية بمصر سراً[8] وهذا ما يفسر سهولة استيلاء مروان على مصر فقد سار إليها بجيشه، ومعه عمرو بن سعيد، وخالد بن يزيد ابن معاوية وحسان بن مالك ومالك بن هبيرة وابنه عبد العزيز [9]، ودارت بين مروان وابن جحدم عدة معارك انتصر فيها مروان وهرب ابن جحدم، ثم جاء إلى مروان طالباً العفو على أن يخرج إلى مكة، فعفا عنه، وكان نجاح مروان في استرداد مصر من جمادى الآخرة سنة 65هـ[10]، وأقام في مصر شهرين لترتيب الأوضاع والاطمئنان عليها، ولما عزم على العودة

(1) تاريخ الطبري (6/ 474).
(2) المصدر نفسه (6/ 474).
(3) البداية والنهاية (11/ 676).
(4) المصدر نفسه (11/ 676).
(5) سير أعلام النبلاء (3/ 479).
(6) الأمويون محمد الوكيل (1/ 307).
(7) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 144.
(8) الولاة والقضاء للكندي، ص: 41 - 42.
(9) المصدر نفسه، ص: 42.
(10) المصدر نفسه، ص: 41، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 144.

إلى الشام عين ابنه عبد العزيز والياً عليها، وأوصاه وصية تدل على حنكة سياسية، وخبرة واسعة، وكان عبد العزيز قد توجس وأخذته وحشة من بقائه في مصر فقال لأبيه: يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بني أبي؟ فقال له: يا بني عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بني أبيك واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره، يكن لك عيناً على غيره، وينقاد قومه إليك وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً، وجعلت موسى بن نصير وزيراً ومشيراً وما عليك يا بني أن تكون أميراً بأقصى الأرض، أليس أحسن من إغلاق بابك وخمولك في منزلك[1]؟ بعد رجوع مروان بن الحكم قافلاً من مصر أقدم على تجهيز حملتين ضد ابن الزبير في محاولة منه لإعادة العراق والحجاز، فكانت الحملة ضد العراق بقيادة عبيد الله بن زياد وكانت مهمتها الأولى هي محاصرة زفر بن الحارث الكلابي والتخلص منه ثم التقدم نحو العراق، حيث مصعب بن الزبير ولكن هذه الحملة لم تحقق شيئاً من أهدافها في عهد مروان إذ سارع إليه الأجل وتوفي وهي في طريقها لمحاصرة زفر بن الحارث في قرقيسيا وعند مجيء عبد الملك أقر هذه الحملة التي سوف نعرض للحديث عنها فيما بعد، أما ما يتعلق بالحجاز فقد جهز مروان جيشاً من فلسطين يقدر بستة آلاف وأربعمائة فارس بقيادة حيش بن دلجة القيني، وكان في الجيش الحجاج بن يوسف ووالده، اتجه هذا الجيش نحو الحجاز ولما وصل إلى وادي القرى هرب عامل ابن الزبير على المدينة[2]، واستمرت الحملة إلى عهد عبد الملك بن مروان[3].

رابعاً: تولية العهد لعبد الملك ووفاة مروان بن الحكم:

ختم مروان بن الحكم أعماله بعقد البيعة لولديه عبد الملك بن مروان وعبد العزيز بن مروان مجسداً لمبدأ التوريث، وكان ذلك قبل وفاته بأقل من شهرين[4]، وبعد نجاحه بإعادة مصر إلى الحكم الأموي، بدأ مروان بالتخطيط لاستبعاد خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد الأشدق من ولاية العهد الذي قرر في مؤتمر الجابية، فتزوج أم خالد بن يزيد وعمل للحصول على موافقة حسان بن مالك بن بحدل الكلبي بتولية العهد لولديه وإبعاد خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد الأشدق فوافقه حسان على ذلك، وقد كان عمرو بن سعيد الأشدق هو الذي كان يطالب بولاية العهد بعد مروان وأعلن ذلك بعد رجوعه من قتال مصعب بن الزبير عندما حاول إعادة ناتل بن قيس الجذامي إلى فلسطين[5]، مما دعا مروان بن الحكم إلى أن يعهد لابنيه عبد الملك وعبد

(1) الولاة والقضاة، ص: 47.
(2) أنساب الأشراف (5/ 50 - 151) الدور السياسي لأهل اليمن، ص: 57.
(3) الدور السياسي لأهل اليمن، ص: 57، عبد الملك للريس، ص: 60.
(4) عبد الملك بن مروان، ص: 60 نقلاً عن تاريخ خليفة.
(5) أنساب الأشراف (5/ 149).

العزيز وذلك سنة 65هـ مستعيناً بحسان بن مالك بن بحدل بعد أن أخبره بما يردده عمرو بن سعيد بن الأشدق بأن الأخير هو ولي العهد فقال حسان: أنا أكفيك عمرو. لهذا جمع الناس وخطبهم فبايع الجميع لعبد الملك ثم لعبد العزيز ولم يتخلف أحد[1]، ويعتبر بعض المؤرخين أن من أهم أعمال مروان بن الحكم تولية ولديه ولاية العهد لولديه، وذلك لحفظ الخلافة في البيت المرواني من جهة ولوضع حداً للتنافس على الخلافة بين بني أمية من جهة ثانية، ولتفادي المشاكل التي ربما تحدث بشأن الخلافة، كما حدثت بعد موت معاوية الثاني[2]، والملاحظ أن مروان بن الحكم نقض بعض مقررات مؤتمر الجابية المتعلقة بولاية العهد ولم يلتزم بعهوده وكان راغباً في حصر الخلافة في أبنائه، فآثر إسقاط وعوده ونقضها على المحافظة على طموحاته ورغباته وأوجد معادلة فيها مطامع ومصالح مشتركة مع المعارضين له مما جعلهم يستجيبون لدعوته إلى تولية أبنائه ولاية العهد من بعده، فقد عمل على التحرش بخالد بن يزيد وتعمّد إهانته أمام الآخرين، بغية تحجيمه وإعطاء صورة للناس بعدم صلاحيته للخلافة ثم خطا الخطوة التالية فأخذ البيعة لولديه عبد الملك وعبد العزيز في بداية سنة 65هـ[3]، لقد استطاع مروان بدهائه ومكره وجهوده المتوالية الخروج بأزمة الحكم الأموي من حالة الضياع إلى مركز الصدارة والقيادة، وهذا لم يكن حدثاً عادياً محدود التأثير، وإنما هو عودة جديدة للحكم بعد تثبيته في الشام ومصر من جهة، وتجريد السفيانيين من الخلافة وتحويلها إلى المروانيين من جهة ثانية، ولم يكن ثمة ما يحول دون استمرار التقدم عند ابنه عبد الملك لنزع الخلافة من الخليفة الشرعي عبد الله بن الزبير ثم يتفرغ للقيام بالعديد من الإصلاحات التي جعلته المؤسس والمجدد الحقيقي لمؤسسات الدولة الأموية، وتعميق الحكم العضوض بها مع وجود بعض الحسنات التي لا تنكر للملك الأموي الجديد.

توفي مروان بن الحكم بدمشق لثلاث خلون من شهر رمضان سنة 65هـ وهو ابن ثلاث وستين سنة، وصلى عليه ابنه عبد الملك وكانت مدة حكمه تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً ودفن بين باب الجابية وباب الصغير[4]، وكان آخر ما تكلم به مروان: وجبت الجنة لمن خاف النار. وكان نقش خاتمه: العزة لله وفي رواية: آمنت بالله العزيز الرحيم[5]، وقد اختلف في سبب وفاته إذ وردت ثلاث روايات فيها الأولى - ترى أنه توفي بالطاعون[6]؟، وتذهب

(1) الأنساب للبلاذري (5/ 150) الدور السياسي لأهل اليمن، ص: 58.
(2) الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، ص: 58.
(3) البداية والنهاية (11/ 715).
(4) المصدر نفسه (11/ 714).
(5) المصدر نفسه (11/ 713).
(6) مروج الذهب (3/ 89) الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، ص: 59.

الأخرى إلى أن زوجته أم خالد بن يزيد سقته سماً فمات أو وضعت وسادته على رأسه حتى مات[1]، وثالثة ترى أنه توفي وفاة طبيعية[2]، إن تناقض الروايات تدل على أن الحقيقة غير معروفة، وأما الرواية التي تتهم زوجته بالقتل تبدو كأنها أسطورة مختلقة ردّدتها الألسن، إما حباً في الثرثرة وإما طعناً في الأسرة الأموية وهذه الرواية غير مقبولة للأسباب الآتية:

1 - أنه لم يعرف عن نساء العرب مثل هذا الفعل فضلاً عن كونها سيدة حرة شريفة تلتقي وإياه في عبد شمس.

2 - مكانة مروان بن الحكم من قومه وتوليته الخلافة يجعل من الصعوبة بمكان الإقدام على مثل هذا الفعل له وذلك للتتائج المترتبة عليه فيما بعد.

3 - لم يظهر أي أثر لهذا الاغتيال في الأسرة الأموية وخاصة بين خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان، مما يدل على أن هذه الرواية غير صحيحة أما الرواية التي تشير إلى موته الطبيعي وإصابته بالطاعون فأنها محتملة لأنه كان قد تجاوز الستين من العمر[3]، فضلاً عن الجهد الذي بذله في أواخر أيامه مما جعل التعويل على موته الطبيعي[4].

المبحث الثالث

عبد الملك بن مروان وصراعه مع ابن الزبير

أولاً اسمه ونسبه وكنيته وشيء من حياته:

1 - اسمه ونسبه وكنيته:

هو عبد الملك بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أبو الوليد الأموي وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية[5].

2 - مولده ووصفه:

كان مولده ومولد يزيد بن معاوية في سنة ستٍّ وعشرين، وقد كان عبد الملك قبل الخلافة من العباد الزهاد الفقهاء، الملازمين للمسجد، التالين للقرآن، وكان ربعة من الرجال أقرب إلى القصر، وكانت أسنانه مشبكة بالذهب، وكان أفوه مفتوح الفم، فربَّما غفل فينفتح فمه فيدخل فيه الذباب، فلهذا كان يقال له: أبو الذِّبان وكان أبيض ربعة ليس بالنحيف ولا البادن،

(1) مروج الذهب (3/ 89) الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، ص: 60.
(2) الطبقات (5/ 226).
(3) الأخبار الطوال، ص: 286.
(4) الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، ص: 60.
(5) البداية والنهاية (11/ 377).

مقرون الحاجبين، أشهل[1] كبير العينين، دقيق الأنف، مشرق الوجه، أبيض الرأس واللحية حسن الوجه لم يخضب ويقال: إنه خضب بعد ذلك[2].

3 - طلبه للعلم وعبادته قبل الإمارة وثناء الناس عليه:

قال نافع: لقد رأيت المدينة ما فيها شاب أشدُّ تشميراً، ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان[3]. وقال الأعمش عن أبي الزناد: كان فقهاء المدينة أربعة، سعيد بن المسيِّب، وعروة، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك قبل أن يدخل الإمارة[4]، وعن ابن عمر أنه قال: ولد الناس أبناء وولد مروان أباً - يعني عبد الملك[5] - ويقصد ابن عمر أن عبد الملك كان يفوق سنه، ويعلو فوق أقرانه[6]، وعن يحيى بن سعيد قال: أول من صلّى ما بين الظهر والعصر عبد الملك بن مروان وفتيان معه. فقال سعيد بن المسيب: ليست العبادة بكثرة الصلاة والصيام، إنما العبادة التفكر في أمر الله، والورع عن محارم الله[7]. وقد صدق رحمه الله. وقال الشعبي: ما جالست أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان، فإنّني ما ذاكرته حديثاً إلا زادني فيه، ولا شعراً إلا زادني فيه[8].

4 - تعظيمه لاسم الله تعالى:

روى البيهقي: أن عبد الملك وقع منه فلس في بئر قذرة، فاكترى عليه بثلاثة عشر ديناراً حتى أخرجه منها، فقيل له في ذلك، فقال: إنه كان عليه اسم الله ﷻ[9].

5 - التسبيح والتكبير في الأسفار:

روى ابن أبي الدنيا، أن عبد الملك كان يقول لمن يسايره في سفره إذا رفعت له شجرة سبِّحوا بنا حتى نأتي تلك الشجرة، وكبِّروا بنا حتى نأتي تلك الحجر، ونحو ذلك[10].

6 - هل يصح هجره للقرآن الكريم؟

قيل: إنه لمّا وضع المصحف من حجره قال: هذا آخر العهد منك[11]. وهذه رواية ضعفها ابن كثير ورواها بصيغة التمريض قيل[12]، كما أن عبد الملك قال لمؤدِّب أولاده وهو إسماعيل بن عبيد الله ابن أبي المهاجر: علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن[13].

---

(1) أشهل: أي يشوب سواد عينه زرقة.
(2) البداية والنهاية (11/ 379).
(3) المصدر نفسه (11/ 379).
(4) المصدر نفسه (11/ 379).
(5) المصدر نفسه (11/ 379).
(6) الخلافة الأموية للهاشمي، ص: 116.
(7) المصدر نفسه (11/ 380) البداية والنهاية (11/ 380).
(8) المصدر نفسه (11/ 380)
(9) المصدر نفسه (11/ 385).
(10) المصدر نفسه (11/ 385).
(11) المصدر نفسه (11/ 381).
(12) المصدر نفسه (11/ 381).
(13) المصدر نفسه (11/ 388).

7 - ما آدب هذا الفتى وأحسن مروءته:

روى ابن سعد ما يدل على أن عبد الملك كان محبوباً مرغوباً من عمومته كبار بني أمية، فذكر أنه: كان معاوية بن أبي سفيان جالساً يوماً ومعه عمرو بن العاص ﷺ، فمر بهما عبد الملك بن مروان فقال معاوية: ما آدب هذا الفتى وأحسن مروءته فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، إن هذا الفتى أخذ بخصال أربع وترك خصالاً ثلاثاً: أخذ بحسن الحديث إذا حدّث، وحسن الاستماع إذا حُدِّث وبحسن البشر إذا لقي، وخفة المؤونة إذا خولف، وترك من القول ما يعتذر عنه، وترك مخالطة اللئام من الناس وترك ممازحة من لا يوثق بعقله ولا مروءته[1].

8 - وصيته لمؤدب أولاده:

قال عبد الملك لمؤدِّب أولاده - وهو إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر. علمهم الصِّدق كما تعلمهم القرآن، وجنبهم السَّفِلَةَ فإنهم أسوأ الناس رِعة[2]، وأقلهم أدباً، وجنِّبهن الحشم، فإنَّهم بهم مفسدة، وأحفِ شعورهم تغلظ رقابهم، وأطعمهم اللحم يقْوَوا وعلمهم الشعر يمجُدُوا وينجُدُوا ومُرْهم أن يستاكوا عَرْضاً ويمصوا الماء مصًّا ولا يُعبُّوا عبًّا، وإذا احتجت أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك في سرٍّ لا يعلم بهم أحد من الحاشية فيهونوا عليهم[3].

9 - موقفه من ابن الزبير قبل الإمارة وبعدها:

فقد كان له من ابن الزبير موقفان متناقضان: أما الأول: فكان قبل أن يتولى الخلافة يستعيذ بالله أن يبعث خليفة إلى مكة جيشاً ليقتل ابن الزبير ومن معه، وكان يرى في ذلك إثماً كبيراً[4]، قال يحيى الغساني: لما نزل مسلم بن عقبة المدينة، دخلت مسجد رسول الله ﷺ فجلست إلى جنب عبد الملك فقال لي عبد الملك: أمن هذا الجيش أنت؟ فقلت: نعم قال: ثكلتك أمك!! أتدري إلى من تسير؟ إلى أول مولود ولد في الإسلام (بعد الهجرة) وإلى ابن حواري رسول الله ﷺ، وإلى ابن ذات النطاقين، وإلى من حنكه رسول الله ﷺ، أما والله لو جئته نهاراً لوجدته صائماً، ولئن جئته ليلاً لوجدته قائماً، فلو أن أهل الأرض أطبقوا على قتله لأكبَّهم الله جميعاً في النار[5]. وأما موقفه الثاني: فكان بعد الخلافة ويأتي عكس الأول تماماً، عندما جهز عبد الملك جيشاً يقوده الحجاج بن يوسف الثقفي، وبعث به إلى مكة حيث كان يتحصن ابن الزبير بالكعبة، وظل محاصراً مكة حتى قُتل عبد الله ابن الزبير[6].

---

(1) الطبقات لابن سعد (5/ 224).
(2) البداية والنهاية (11/ 389) الرعة: قلة الورع.
(3) المصدر نفسه (11/ 389).
(4) الخلافة الأموية للهاشمي، ص: 116.
(5) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص: 217.
(6) المصدر نفسه.

ثانياً: حياته السياسية قبل الإمارة:

كان أول حادث سياسي أثر في حياته عندما كان عمره عشر سنوات، فقد شهد مقتل عثمان ﷺ ، وكان لهذا الحادث أثر في سياسته لما تولى الإمارة فقد خطب في إحدى خطبه: أيها الناس أنا نحتمل لكم كل اللغوبة ما لم يكن رأيه أو وثوب على منبر[1]. وأول منصب إداري تولاه في الدولة في عهد معاوية بن أبي سفيان، فقد كان عاملاً على هجر[2] ثم تولى ديوان المدينة بعد وفاة زيد بن ثابت[3]، وشارك في الجهاد فقد خرج على رأس حملة إلى أرض الروم ويشتي هناك في سنة 42هـ[4]،كما يذكر أنه غزا إفريقية مع معاوية بن حديج وكلفه بفتح جلولا في بلاد الشمال الإفريقي وفي عهد يزيد كان يقول على ابن الزبير ما على الأرض اليوم خيراً منه[5]، كما أن علاقته بمصعب بن الزبير كانت حسنة، وأما عن دوره السياسي في عهد مروان بن الحكم، فقد تولى فلسطين وكان يبعث نائباً عنه روح بن زنباع[6] ، ويمكن أن يكون ذلك ليبقى في دمشق قريباً من إدارة الدولة لمساعدة والده هناك لاسيما أن الفترة التي تولى فيها والده الحكم كانت الدولة محاطة فيها بالأعداء من الداخل والخارج، وتولى إمرة دمشق عند ذهاب والده لفتح مصر[7]، وهذه المهمة تدل على كفايته الإدارية وحزمه[8].

ثالثاً: العلماء الذين كانوا مع عبد الملك:

بايع بعض العلماء لعبد الملك بن مروان بالشام وكانوا قلة لا يعدون شيئاً أمام العلماء الذين بايعوا ابن الزبير أو الذين اعتزلوا حتى تجتمع الأمة على خليفة، وانحصر وجود هؤلاء في إقليم الشام، وقد ذكر من هؤلاء العالم الجليل قبيصة بن ذؤيب رحمه الله فكان من المبايعين لعبد الملك وأحد المقربين إليه[9]، ومنهم يزيد بن الأسود الجرشي رحمه الله فورد أنه كان مع عبد الملك في خروجه لقتال مصعب بن الزبير وروي عنه أنه حين رأى الجيشين قد التقيا قال: اللهم أحجز بين هذين الجبلين وول الأمر أحبهما إليك[10].

---

(1) الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، ص: 64.
(2) المعارف لابن قتيبة، ص: 355، الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، ص: 64.
(3) الطبقات (5/ 225).
(4) تاريخ خليفة (1/ 69).
(5) الطبقات (5/ 226).
(6) أنساب الأشراف (5/ 127).
(7) الكامل في التاريخ نقلاً عن الدور السياسي لأهل اليمن، ص: 65.
(8) الدور السياسي لأهل اليمن، ص: 65.
(9) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 542.
(10) سير أعلام النبلاء (4/ 137).

رابعاً: حركة التوابين ومعركة عين الوردة ٦٥هـ:

عندما عمّ الاضطراب أنحاء البلاد بعد موت يزيد وفرار عبيد الله بن زياد، شرع أنصار الحسين يتصلون ببعضهم البعض بهدف وضع خطة للثأر لدمه، إذ بعد استشهاده هزتهم الفاجعة وندموا على تقاعسهم عن نصرته، والدفاع عنه، معترفين بخطيئتهم بحماسة شديدة، لذلك لم يجدوا وسيلة يكفرون بها عن هذا التقصير ويتوبون إلى الله بها من هذا الذنب الكبير سوى الثأر للحسين[1]، وأخذ الشيعة يعقدون الاجتماعات برئاسة سليمان بن صرد الخزاعي لدراسة الموقف، وأسلوب العمل الذي سيتبعونه وغلب على هذه الاجتماعات موضوع التوبة والغفران، وثم شرعوا في تجييش الناس، وخرج التوابون من معسكرهم في النخيلة في شهر ربيع الأول 65هـ وهو الموعد الذي حددوه لخروجهم وكانت المحطة الأولى في مسيرتهم الانتقامية في كربلاء حيث بلغوا قبر الحسين فاسترحموا عليه وبكوا وتابوا عن خذلانهم له، وبعد يوم وليلة من البكاء كان الحماس قد أخذ منهم حق العمق، فقرروا السير إلى الشام لقتال عبيد الله بن زياد باعتباره الرجل الذي أصدر الأمر بقتل الحسين، لأنهم وجدوا أنه الطريق الأجدى لتحقيق الانتقام[2]، ومرّ جيش التوابين ببلدة هيت على الفرات ثم صعد مع النهر إلى أن وصل إلى قرقيسياء[3]. وكانت هذه المدينة هي أبعد المناطق في هذا الاتجاه التي اعترفت ولو اسمياً ببيعة ابن الزبير[4]، واستقبل أمير قرقيسياء زفر بن الحارث الكلابي، جيش التوابين بحماسة خاصة وأنه قد جمعت الفريقين مصلحة مشتركة هي مقاتلة الأمويين واقترح زفر عليهم توحيد صفوفهم مع أنصار ابن الزبير، إلا أنهم اعتذروا عن قبول اقتراحه كما رفضوا نصيحته بالعدول عن قرارهم الانتحاري، واكتفوا بالتزود بما يحتاجون إليه من المدينة ثم مضوا إلى مصيرهم[5]، والتقى التوابون بالجيش الأموي في عين الوردة من أرض الجزيرة إلى الشمال الغربي من صفين في عام 65هـ وخاضوا ضده معركة ضارية غير متكافئة بفعل قلة عددهم بالمقارنة مع عدد أفراد الجيش الأموي، أسفرت عن تدميرهم ومقتل زعمائهم باستثناء رفاعة ابن شداد الذي تراجع بالبقية القليلة منهم إلى الكوفة[6]وقد علق الذهبي على سليمان بن صرد زعيم جيش التوابين بقوله: كان ديناً عابداً، خرج في جيش تابوا إلى الله من خذلانهم الحسين

(1) الكامل في التاريخ (2/ 635).
(2) تاريخ الطبري نقلاً عن تاريخ الدولة الأموية طقوش، ص: 71.
(3) الكامل في التاريخ (2/638).
(4) تاريخ الطبري نقلاً عن تاريخ الدولة الأموية، طقوش، ص: 71.
(5) تاريخ الدولة الأموية طقوش، ص: 72، الكامل في التاريخ (2/ 639).
(6) تاريخ الطبري، نقلاً عن تاريخ الدولة الأموية، ص: 72.

الشهيد، وساروا للطلب بدمه، وسُمُّوا جيش التوابين[1]. وعلق ابن كثير على جيش التوابين بقوله: لو كان هذا العزم والاجتماع قبل وصول الحسين إلى تلك المنزلة لكان أنفع له وأنصر من اجتماعهم لنصرته بعد أربع سنين[2]، وكان عمر سليمان بن صرد ﷺ يوم قتل ثلاثاً وتسعين سنة[3].

والحق أن الإنسان يقف مبهوراً أمام شجاعة التوابين وجرأتهم فقد كان عددهم لا يتجاوز أربعة الآف رجل، وخاضوا هذه المعركة بإيمان صادق، وعقيدة راسخة، وشجاعة نادرة، وصبر فائق، مع عشرين ألف جندي على أقل تقدير من أهل الشام، وأنزلوا بهم خسائر فادحة في الأرواح، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة حتى خاضوا في الدماء، ولولا كثرة جيش الشام، حتى استطاعوا أن يلتفوا حولهم، ويضربوا عليهم طوقاً، وأحاطوا بهم من كل جانب، ثم رموهم بالنُّبل لما استطاعوا الانتصار عليهم[4]، ولكنا إزاء هذا الإعجاب بشجاعتهم، وإخلاصهم وتفانيهم في القتال، لا نملك إلا أن نتساءل، أين كانت هذه الشجاعة يوم تركوا الحسين ﷺ يواجه الموت هو وأهل بيته، دون أن يتحرك منهم أحد[5]؟ **وأما أهم أسباب فشل التوابين فهي:**

1 - قلة عددهم إذا قورنوا بجيش الشام، فكان عدد التوابين أربعة الآف مقاتل بينما كان جيش خصمهم الذين اشتبكوا معهم عشرين ألفاً عدا من كان ينتظر مع عبيد الله بن زياد على سبيل الاحتياط.

2 - ضعف التوابين من الناحية العسكرية، فلا نستطيع أن نقارن أي واحد من قادة التوابين بقدرة ابن زياد أو حصين بن نمير من حيث الخبرة والقدرة العسكرية، وهذا يتفق مع وصف المختار الثقفي لسلمان بن صرد: إن سليمان رجل لا علم له بالحرب وسياسة الرجال[6].

3 - تخاذل التوابين عن الاشتراك، فعندما أحصى ابن صرد من بايعوا وجدهم ستة عشر ألفاً عدا أهل المدائن والبصرة الذين لم يتم تنسيقهم مع الآخرين مع أن المشركين في القتال هم أربعة الآف.

4 - عدم اشتراك المختار الثقفي في القتال وليت الأمر كذلك ولكنه كان يثبط الناس عن سليمان بن صُرد[7].

---

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 395).
(2) البداية والنهاية (11/ 697).
(3) البداية والنهاية (11/ 703).
(4) الأمويون للوكيل (1/ 315).
(5) المصدر نفسه (1/ 315).
(6) أنساب الأشراف (5/ 207).
(7) سير أعلام النبلاء (3/ 540) عبد الله ابن الزبير للناطور، ص: 148.

خامساً: حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي:

هو المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذّاب، كان والده الأمير أبو عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة الثقفي، أسلم في حياة النبي ﷺ ولم نعلم له صحبة استعمله عمر بن الخطاب على جيشٍ، فغزا العراق، وإليه تنسب وقعة جسر أبي عبيد، ونشأ المختار، فكان من كبراء ثقيف، وذوي الرأي، والفصاحة، والشجاعة والدّهاء وقلة الدين[1]، وقد قال النبي ﷺ: «**يكون في ثقيف كذاب ومبير**»[2]، فكان الكذاب هذا، ادّعى أنَّ الوحي يأتيه، وأنه يعلم الغيب، وكان المبير الحجاج، قبّحهما الله[3]، ظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي على مسرح الأحداث بعد موت يزيد بن معاوية سنة 64هـ، وهو من الشخصيات التي حفل بها العصر الأموي، والتي كانت تسعى لها عن دور، وتسعى إلى السلطان بأي ثمن، فتقلب من العداء الشديد لآل البيت إلى ادعاء حبهم والمطالبة بثأر الحسين[4]. فقد مر بنا في كتابي عن الحسن بن علي بن أبي طالب بأنه أشار على عمه سعد بن مسعود الثقفي بالقبض على الحسن ابن علي وتسليمه إلى معاوية، لينال بذلك الحظوة عنده[5]، ثم حاول الاتصال بعبد الله بن الزبير والانضمام إليه، وشرط عليه شروطاً، منها أن يكون أول داخل عليه وألا يقضي الأمور دونه، وإذا ظهر استعان به على أفضل أعماله[6]، وباختصار أراد أن تكون له كلمة في دولته، ولكنه لم يجد تجاوباً من ابن الزبير، فانصرف عنه إلى الكوفة[7]، حيث كان الأمر فيها مضطرباً فأراد أن يصطاد في المياه العكرة، ولم يجد فيها ورقة رابحة سوى الادعاء بالمطالبة بدم الحسين وآل البيت وادعى أن لديه تفويضاً بذلك من محمد بن على بن أبي طالب، الملقب بابن الحنفية، ولكنه لم يكن صادقاً في ذلك، بل قرر أن يركب تيار الشيعة ليصل إلى هدفه وهو الحكم والسلطان. وقد عبر هو نفسه عن ذلك في حواره مع رجال من رجاله الذين أخلصوا له، وكانوا يظنونه صادقاً في دعوته للثأر لآل البيت، وهو السائب بن مالك الأشعري. فقد قال له المختار عندما ضيق عليه وصعب الخناق واقتربت نهايته: ماذا ترى؟ فقال له السائب: الرأي لك؟ قال: أنا أرى أم الله يرى؟ قال: الله يرى قال: ويحك أحمق أنت! إنما أنا رجل

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 539).
(2) مسلم رقم (2545).
(3) سير أعلام النبلاء (3/ 539).
(4) البداية والنهاية (11/ 66).
(5) تاريخ الطبري نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 482.
(6) الكامل في التاريخ، نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 482.
(7) البداية والنهاية (11/ 66).

من العرب رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز، ورأيت نجدة انتزى على اليمامة ومروان على الشام، فلم أكن دون أحد من رجال العرب، فأخذت هذه البلاد، فكنت كأحدهم إلا أني قد طلبت وبالغت في ذلك إلى يومي هذا، فقاتل على حسبك إن لم تكن لك نية فقال السائب: إنا لله وإنا إليه راجعون[1]. قال السائب ذلك لما تبين له أن المختار صنع كل ما صنع من أجل السلطان وحده، ولذلك يصف الذهبي المختار بالكذب وقلة الدين[2]، ظهر المختار في الكوفة في الوقت الذي كان فيه سليمان بن صرد الخزاعي زعيم التوابين يستعد للذهاب إلى الشام، لقتال عبيد الله بن زياد، فحاول تثبيط الناس عنه، وقد نجحت دعايته وتجمع حوله نحو ألفين من الشيعة وبقيت غالبيتهم مع سليمان بن صرد، وكانت نتيجة معركة عين الوردة من مصلحة المختار، فقد جاءته مصدقة لتوقعاته كما أنه انفرد بزعامة الشيعة ولجأ إليه الفارون من المعركة، فقويت حركته وكثر أتباعه، ثم ازداد مركزه قوة بانضمام إبراهيم بن الأشتر النخعي إليه، وهو من زعماء الكوفة فثار على عبد الله بن مطيع العدوي، أمير الكوفة من قبل عبد الله بن الزبير فأخرجه منها وأحكم سيطرته عليها.

. قضاء المختار على قتلة الحسين:

ولكي يثبت دعواه في صحة دعوته في المطالبة بدم الحسين، فقد تتبع قتلته فقتل معظمهم في الكوفة[3]، ثم أعد جيشاً جعل على قيادته إبراهيم الأشتر، وأرسله إلى قتال عبيد الله، فالتقى به عند نهر الخازر بالقرب من الموصل وحلت الهزيمة بجيش ابن زياد، الذي خرّ صريعاً في ميدان المعركة سنة 67هـ[4].

وقد قال ابن مفرّغ حين قتل ابن زياد:

إن المنايا إذا ما زُرن طاغية ... هتّكن أستار حُجّاب وأبواب
أقول بُعداً وسحقاً عند مصرعه ... لابن الخبيثة وابنِ الكوْدن الكابي[5]
لا أنت زُوجمت عن مُلك فتمنعهُ ... ولا مشَتَّ إلى قوم بأسباب[6]

وقد شرع المختار في تتبع قتلة الحسين ومن شهد الوقعة بكربلاء من ناحية ابن زياد، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وظفر برؤوس كبار منهم، كعمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الجيش الذين قتلوا الحسين، وشمر بن ذي الجوشن أمير الألف الذين وَلُوا قتل الحسين، وسنان بن أبي

(1) تاريخ الطبري (6/ 677).
(2) سير أعلام النبلاء (3/ 539).
(3) العراق في العصر الأموي، ثابت الرواي، ص: 250 - 251.
(4) الكامل في التاريخ (2/ 7).
(5) الكودن: البرذون الهجين أو البغل: الكابي: المنكب على وجهه.
(6) الكامل في التاريخ (2/ 9).

أنس، وخولي بن يزيد الأصبحي، وخلقاً غير هؤلاء[1]. وكان مقتل عبيد الله بن زياد في يوم عاشوراء سنة سبع وستين، ثم بعث إبراهيم بن الأشتر برأس بن زياد إلى المختار[2]، وتعاظم نفوذ المختار بعد انتصار جيشه على جيش ابن زياد، وسيطر على شمال العراق والجزيرة وجعل يولي العمال من قبله على الولايات[3]، ويجبي الخراج، وانضم إليه عدد كبير من الموالي لبغضهم لبني أمية من ناحية[4]، ولأنه أغدق عليهم الأموال من ناحية ثانية[5]. وبدا كما لو أنه أقام دولة خاصة به في العراق بين دولتي ابن الزبير في الحجاز، وعبد الملك بن مروان في الشام[6].

1 - أسباب نجاح حركة المختار في مرحلتها الأولى:

نجحت حركة المختار في بداية الأمر للأسباب الآتية:

أ - الأرضية الملائمة، حيث العواطف ثائرة والنفوس مشحونة في وقت كانت حركة التوابين تلقى مصيرها الذي اختارت، عبر عملية استشهادية في نظر التوابين كان لها صداها المأساوي في الكوفة، ومن ناحية أخرى، فإن ابن الزبير لم يدعم وجوده بالكوفة بالجيوش وإغداق الأموال والتلطف للأعيان والأشراف والزعماء، وكانت وجهة نظره معتمدة على ترك تطاحن الأمويين مع أتباع المختار وما يترتب على ذلك من استنزاف لهما، بكون ابن الزبير هو المستفيد من نتائج ذلك التطاحن[7].

ب - تودد المختار لبني هاشم، فكان يرسل الهدايا لهم، وعمل على كسبهم[8].

جـ - الشخصية القيادية البارزة التي تمتع بها المختار في الوقت الذي غابت فيه عن الكوفة الزعامة السياسية المحورية، القادرة على توحيد اتجاهات الحركة الشيعية واستيعاب التطورات المتلاحقة، ولا نهمل المكر والدهاء والمرونة، والقدرة على استثمار الأحداث من مقتل الحسين، وحجر بن عدي، والتوابين وتوظيف ذلك، كما امتازت شخصية المختار بقدرتها على المناورة[9].

د - البرنامج العملي الذي تقدم به، كان المدخل الاستقطابي لشريحة عريضة في المجتمع

(1) البداية والنهاية (11/ 66).
(2) تاريخ الطبري نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 484.
(3) تاريخ الطبري نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 484.
(4) الدولة الأموية في المشرق للنجار، ص: 143.
(5) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 484.
(6) المصدر نفسه، ص: 484.
(7) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص: 204، 205.
(8) عبد الله بن الزبير للناطور، ص: 158.
(9) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص: 205.

كانت مضطهدة ومسحوقة وهي شريحة الموالي التي وجدت في حركته المتنفس لتحقيق أهدافها في المساواة وتحسين أوضاعها الاجتماعية[1].

هـ - سوء اختيار ابن الزبير لعماله في الكوفة، ويبدو أنهم لم يكونوا على قدر المرحلة ولذلك انفلتت الأمور من أيديهم في الكوفة[2].

2 - نهاية المختار على يد مصعب بن الزبير:

كان من المتوقع أن تكون نهاية المختار على يد عبد الملك الذي وتره بقتل ابن زياد أبرز أعوانه ولكن عبد الملك كان من الدهاء بحيث أدرك أن ابن الزبير وإن كان قد أسعده ظهور المختار في البداية وقهره لجيش عبد الملك[3]، إلا أنه لن يسمح لنفوذه أن يتسع ويهدد دولته، وأنه لا بد أن يتحرك للقضاء عليه، فآثر الانتظار وترك ابن الزبير يواجه المختار، لأن نتيجة المواجهة ستكون في صالحه، فسوف يقضي أحدهما على صاحبه، ومن يبقى تكون قوته، قد ضعفت فيسهل له القضاء عليه، وقد حدث ما توقعه عبد الملك، فإن المختار لم يكتف بانتصاره على جيش عبد الملك وبسط نفوذه على شمال العراق والجزيرة، بل أخذ يعد نفسه للسير إلى البصرة لانتزاعها من مصعب بن الزبير الذي أصبح والياً عليها من قبل أخيه عبد الله بعد أن بايعه أهلها، وهنا أصبح الصدام محتوماً بين المختار وآل الزبير[4]، فسار مصعب بن الزبير بنفسه إلى قتال المختار في جيش هائل فحاصره بالكوفة وضيق عليه ومازال حتى أمكن الله منه، فقتله واحتزَّ رأسه، وأمر بصلب كفِّه على باب المسجد، وبعث مصعب برأس المختار مع رجل من الشُّرَط على البريد إلى أخيه عبد الله بن الزبير، فوصل مكة بعدَ العشاءِ فوجد عبد الله يتنفَّل، فما زال يصلِّي حتى أسحر ولم يلتفت إلى البريد الذي جاء بالرأس فقال: ألقه على باب المسجد، فألقاه ثم جاء فقال: جائزتي يا أمير المؤمنين. فقال: جائزتك الرأس الذي جئت به تأخذه معك إلى العراق. ثم زالت دولة المختار كأن لم تكن، وكذلك سائر الدول، وفرح المسلمون بزوالها وذلك لأنَّ الرجل لم يكن في نفسه صادقاً، بل كان كاذباً، وكاهناً، وكان يزعم أن الوحي ينزل عليه على يد جبريل يأتي إليه[5]، وعن رفاعة بن شدّاد قال: كنت أقوم على رأس المختار، فلمّا عرفت كذبه هممت أن أسُلَّ سيفي فأضرب عنقه، فذكرت حديثاً حدّثناه عمرو بن الحمق قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من أمَّن رجلاً على نفسه فقتله، أعطي لواء غدر يوم القيامة»**[6]، وقد قيل لابن عمر: إن المختار يزعم أن الوحي يأتيه. فقال: صدق، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: 121]. وعن

(1) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص: 205.
(2) عبد الله بن الزبير للناطور، ص: 205.
(3) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 484.
(4) المصدر نفسه، ص: 485 البداية والنهاية (11/ 67).
(5) البداية والنهاية (11/ 68).
(6) سنن ابن ماجه رقم (2688) حديث صحيح.

عكرمة قال: قدمت على المختار، فأكرمني وأنزلني حتى كان يتعهد مبيتي بالليل، قال: فقال لي: اخرج فحدِّث الناس. قال: فخرجت فجاء رجل فقال: ما تقول في الوحي؟ فقلت: الوحي وحيان، قال الله تعالى: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [يوسف: 3] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾ [الأنعام: 112] قال: فهمّوا بي أن يأخذوني، فقلت: ما لكم وذاك، إنّي مفتيكم وضيفكم، فتركوني، وإنما أراد عكرمة، أن يعرّض بالمختار وكذبه في ادّعائه أن الوحيّ ينزل عليه[1] قال ابن كثير: وذكر العلماء أن الكذّاب هو المختار بن أبي عبيد، وكان يظهر التشيع ويبطن الكهانة ويسرُّ إلى أخصّائه أنّه يوحى إليه. ولكن ما أدري هل كان يدّعي النبوة أم لا؟، وكان قد وضِع له كرسي يُعَظَّمُ ويُحَقُّ بالرجال ويُستَرُ بالحرير، ويحمل على البغال، وكان يُضاهي به تابوت بني إسرائيل المذكور في القرآن، ولا شك أنّه كان ضَالًّا مضالًّا، أراح الله المسلمين منه بعدما انتقم به من قوم آخرين من الظالمين[2]، قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩﴾ [الأنعام: 129]، وتسليط الظالم على الظالم سنة من سنن الله في حركة المجتمعات واضحة المعالم في دراسة تاريخ الإنسانية.

3 - أسباب فشل حركة المختار:

أ - نفور أشراف العرب في الكوفة وما يمثلون من حول وقوة وقتالهم له، ثم توجه من سلم إلى مصعب بن الزبير في البصرة واشتراكهم معه في القتال ضد المختار.

ب - إصابته بالغرور بحيث أنه طرد عمر بن علي بن أبي طالب لأنه لم يحظر له كتاباً من ابن الحنفية حيث قال له: انطلق حيث شئت فلا خير لك عندي[3]، فتركه وذهب إلى مصعب ليعود معه ليقاتله.

جـ - تجهيز مصعب جيشاً كبيراً وانضمام المهلب بن أبي صفرة واشتراكه معه في القتال. بينما لم يشترك قائد المختار إبراهيم بن الأشتر ولذلك لم يكن القتال متعادلاً

د - اكتشاف كذب المختار، فقد قال الشعبي بأن ابن الحنفية لم يرسل مع المختار كتاباً لابن الأشتر[4]، ولم تخف الرسالة عليه فقد شك فيها لولا من شهد مع المختار، وقد عرف أشراف العرب ذلك وقالوا: هذا كذاب[5].

---

(1) البداية والنهاية (11/ 69).
(2) المصدر نفسه (11/ 71).
(3) تاريخ الدولة الإسلامية ابن الطقطقي، ص: 121، عبد الله بن الزبير للناطور، ص: 159.
(4) تاريخ الطبري نقلاً عن عبد الله بن الزبير للناطور، ص: 159.
(5) إمبراطورية العرب، ص: 156، غلوب نقلاً عن ابن الزبير للناطور، ص: 159.

هـ - تخلي ابن الحنفية عن المختار، فقد قام على باب الكعبة وقال: أنه كان كذاباً يكذب على الله ورسوله[1]، بل أكثر من ذلك فقد روى الطبري أن ابن الحنفية كتب إلى شيعته: فاخرجوا إلى المجالس والمساجد فاذكروا الله علانية وسراً ولا تتخذوا من دون المؤمنين بطانة، فإن خشيتم على أنفسكم فاحذروا على دينكم الكذابين[2].

و - ابتداع المختار لأمر غريب في الإسلام ألا وهو الكرسي، فقد جاء بكرسي ثم قال لأصحابه: إنه لم يكن في الأمم الخالية أمراً إلا وهو كائن في هذه الأمة مثله، وإنه كان في بني إسرائيل التابوت فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، وإن هذا فينا مثل التابوت، اكشفوا عنه، فكشفوا عنه أثوابه، وقامت السبئية فرفعوا أيديهم فكبّروا ثلاثاً[3].

ز - حاجة ابن الزبير الماسة إلى العراق فهي مصدر المال والرجال الوحيد بعد ضياع الشام ومصر، وبقاء المختار في العراق يهدد مكانته وتقطع عليه الوصول إلى بلاد فارس التي لاتزال على طاعته[4].

4 - الفرقة الكيسانية وعلاقتها بالمختار:

أما كيسان المنسوبة إليه[5] مختلف فيه، لكن الذي لا خلاف عليه أن المختار ابن أبي عبيد الثقفي تزعم الفرقة سنة 66هـ بالكوفة وكانت الفرقة الكيسانية من الشيعة الغلاة، وكان المختار الثقفي أول من أكد فكرة المهدية في شخص محمد ابن الحنفية حيث أطلق عليه لقب المهدي، كما استخدم فكرة (البداء) وقد اشتهرت هذه المقولة قبيل قتل المختار 67هـ وكان المختار - أيضاً - يقول بالبداء الذي هو من أصول الرافضة الأولى، فإن المختار كان قد تكهن بنصر أصحابه، فلما انهزموا زعم أن الله بدا له[6]، وبهذه الفكرة الشيطانية مكنته من تغيير آرائه من حين لآخر - هذا فضلاً عن إظهار نفسه بمظهر النبي وإقراره لفكرة الكرسي الذي ادعى أنه يعود للإمام علي ﷺ إلى غير ذلك من الآراء المبتدعة[7]، وقد تطورت معتقدات الكيسانية ودخلوا في النفق الشيطاني المظلم، وكانوا يقولون بإمامة ابن علي المعروف بابن الحنفية،

(1) الطبقات الكبرى (5/ 158).
(2) تاريخ الطبري نقلاً عن عبد الله بن الزبير للناطور، ص: 159.
(3) المصدر نفسه.
(4) عبد الله بن الزبير للناطور، ص: 159.
(5) أهو كيسان مولى علي بن أبي طالب الذي قتل يوم صفين؟ أم كيسان تلميذ محمد ابن الحنفية؟ أم كيسان رئيس حرس المختار بن عبيد الثقفي؟ أم هو المختار نفسه لأنه كان يسمى كيسان ويكنى أبا عمرة وأبا إسحاق؟ (الملل والنحل 1/ 133).
(6) الفَرق بين الفِرق، ص: 55، 56، دراسات في الأهواء والفرق، ص: 248.
(7) نشأة الحركات السياسية والدينية في الإسلام، د. فاروق فوزي، ص: 101.

لأنه دفع إليه الراية بالبصرة[1]. وقالوا بالتناسخ ويزعمون أن الإمامة جرت في علي ثم في الحسن ثم في الحسين ثم في محمد ابن الحنفية، ومعنى ذلك أن روح الله صارت في النبي ﷺ، وروح النبي ﷺ صارت في علي، وروح الحسين صارت في محمد ابن الحنفية، وروح ابن الحنفية صارت في ابنه أبي هاشم[2]. ويعتقدون في ابن الحنفية اعتقاد فوق حده ودرجته، من: إحاطته بالعلوم كلها، واقتباسه من (السيدين) الأسرار بجملتها من علم التأويل والباطن وعلم الآفاق والأنفس[3]. والحق أن ابن الحنفية لم يقر الغلو الذي قيل فيه، ولم يعترف بأنه المهدي المنتظر، وروى ابن سعد حديثاً رفعه إلى أبي العريان المجاشعي قال: فبلغ محمداً أنهم يقولون: إن عندهم شيئاً أي من العلم. قال: فقام فينا وقال: إنا والله ما ورثنا من رسول الله ﷺ إلا ما بين هذين اللوحين. ثم قال: اللّهم خلا وهذه الصحيفة في ذؤابة سيفي فسألت: وما كان في الصحيفة؟ قال: من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً[4]. وقال محمد للرجل الذي قابله وسأله عن أشياء سرية نميت إلى الرجل عن محمد: أما بعد فإياكم وهذه الأحاديث فإنها عيب عليكم، وعليكم بكتاب الله، فإنه به هُدِي أولكم وبه يُهدي آخركم[5]. . ويظهر أن المختار هو الذي روّج فكرة مهدية محمد لأسباب سياسية أي أنه أراد يحكم باسمه دون إشراكه بالسلطة الفعلية. وعندما هم ابن الحنفية أن يقدم إلى الكوفة، وبلغ ذلك المختار فثقل عليه قدومه فقال: إن في المهدي علامة، يقدم بلدكم هذه فيضربه رجل في السوق بالسيف لم تضره. . فبلغ ذلك ابن الحنفية فأقام[6].

وقال كثير بن عزّة في ابن الحنفية:

ألا إن الأئمةَ من قريش ... ولاة الحقِّ أربعة سواء
عليٌّ والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبرٍّ ... وسبط غيَّبته كربلاء
وسبط لا تراه العين حتى ... يقود الخيل يقدمها لواء
تغيب - لا يُرى عنهم زمانا ... برضوى عنده عسل وماء[7].

سادساً: حركة عمرو بن سعيد بن العاص (الأشدق) ومقتله:

نصت مقررات مؤتمر الجابية كما أشرنا على أن تكون الخلافة لعمرو بن سعيد الأشدق بعد مروان بن الحكم وخالد بن يزيد بن معاوية، وتجاوز مروان عمراً وبايع لابنيه عبد الملك،

(1) المقالات والفرق، ص: 26، الشيعة العربية والزيدية، ص: 258.
(2) الملل والنحل (1/ 131).
(3) المصدر نفسه (1/ 131).
(4) الشيعة العربية والزيدية، ص: 259.
(5) الطبقات (5/ 70).
(6) سير أعلام النبلاء (4/ 118).
(7) المصدر نفسه (4/ 112).

وعبد العزيز، الأمر الذي أثار نقمة عمرو، بعكس خالد بن يزيد الذي انصرف إلى العلم لاسيما الكيمياء[1]، وفي أول سنة 69 هـ خرج عبد الملك بجنوده يريد قرقيسيا، ليحاصر فيها زفر بن الحارث، واستخلف على دمشق عمرو بن سعيد بن أبي العاص ولم يكد عبد الملك يخرج بجيشه من دمشق، حتى تحصن بها عمرو بن سعيد، وأخذ ما في بيت المال من الأموال، ، وتذكر رواية أخرى أن عمرو بن سعيد كان مع عبد الملك حين خرج إلى قرقيسيا ولكنه استغل فرصة الليل، وانخذل هو وجماعة معه من الجيش، ورجعوا إلى دمشق فقر والي دمشق من قبل عبد الملك عبد الرحمٰن بن أم الحكم الثقفي، ودخلها عمرو بن سعيد واستحوذ على ما فيها من الخزائن[2] وبعث عمرو إلى عبد الرحمٰن بن أم الحكم فلم يجده، فأمر بهدم بيته واجتمع الناس وصعد عمرو المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إنه لم يقم أحد من قريش قبلي على هذا المنبر إلا زعم أن له جنة وناراً، يدخل الجنة من أطاعه، والنار من عصاه، ، وإني أخبركم أن الجنة والنار بيد الله، وأنه ليس إليَّ من ذلك شيء غير أن لكم عليّ حسن المواساة والعطية[3]، وأصبح عبد الملك فسأل عن عمرو بن سعيد فلم يجده، فكرّ راجعاً إلى دمشق، فوجد عمراً وقد تحصن بها، ودارت بينهما معركة استمرت ستة عشر يوماً[4]، ويبدو أن عبد الملك قد رأى موقف عمرو قوياً حيث كان متحصناً بقلعة رومية منيعة، فعرض الصلح فتصالحا على ترك القتال[5].

1 - شروط عمرو بن سعيد بن العاص:

كانت شروطه كالآتي: على أن لعمرو بن سعيد الخلافة بعد عبد الملك[6]، وأن يكون له عامل مع كل عامل لعبد الملك وأن يستشيره في كل صغيرة وكبيرة[7] ويوليه الديوان وبيت المال[8]، وتبرز كتب التاريخ أسباباً عديدة دعت عبد الملك بالقبول بهذه الشروط منها:

أ - انقسام قبيلة كلب ذات القوة والتأثير السياسي في الأحداث آنذاك بين عبد الملك وعمرو الأشدق مما جعل كسب المعركة بالقوة يؤدي إلى خسائر فادحة لكلا الطرفين، ولم يكن لصالح كلب التي فرضت الصلح[9].

ب - سيطرة عمرو الأشدق على مدينة دمشق التي تعد العاصمة آنذاك وفيها بيت المال وديوان الجند اللذان يعدان عصب الحياة وكسب المؤيدين آنذاك.

---

(1) تاريخ خلافة بني أمية، نبيه عاقل، ص: 152.
(2) البداية والنهاية (11/ 114).
(3) المصدر نفسه (11/ 115).
(4) المصدر نفسه (11/ 115).
(5) الأمويون للوكيل (1/ 369).
(6) الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، ص: 85.
(7) تاريخ خليفة نقلاً عن الدور السياسي لأهل اليمن، ص: 85.
(8) أنساب الأشراف (4/ 139).
(9) نهاية الأرض (21/ 102)، الدور السياسي لأهل اليمن، ص: 86.

جـ - وقوف أكثر القبائل اليمانية الأخرى على الحياة وعدم تدخلها في الصراع مما يجعل القرار الفعلي للصلح بيد قبيلة كلب ذاتها[1].

د - قوة عمرو الأشدق في الشام وخاصة في دمشق فقد أيدته دمشق فضلاً عن زعيم بجيلة عبد الله بن كريز القسري الذي كان مع شرطته[2].

هـ - ويمكن أن يكون قبول الاتفاقية من قبل عبد الملك لحل النزاع سلمياً ثم القيام بقتل عمرو الأشدق بعد اتفاقه مع بعض زعماء الشام وبني أمية[3].

2 - غدر عبد الملك بابن عمه عمرو بن سعيد:

وبعد عقد الصلح ودخول عبد الملك دمشق بأربعة أيام، أرسل إلى عمرو أن ائتني. . فلما كان بعد الظهر لبس عمرو درعاً بين ثيابه، وتقلد سيفه فلما نهض عثر في البساط، فقالت امرأته وبعض من كان حاضراً عنده: إنا لا نرى أن تذهب إليه، فلم يعبأ بكلامهم، ومضى في مائة من عبيده، وكان عبد الملك قد أمر بني مروان بالحضور عنده، وأمر حاجبه أن يدخل ابن سعيد ويغلق الباب دون من معه. . ثم غُلقت الأبواب واقترب عمرو من عبد الملك، فرحب به وأجلسه معه على السَّرير، ثم جعل يحدثه طويلاً. ثم إن عبد الملك قال: يا غلام، خذ السيف عنه، فقال عمرو: إنا لله يا أمير المؤمنين فقال له عبد الملك: أو تطمع أن تتحدَّث معي متقلِّداً سيفك؟ فأخذ الغلام السيف عنه، ثم تحدَّثا ساعة، ثم قال له عبد الملك: يا أبا أمية. قال: لبيك يا أمير المؤمنين قال: إنك حيث خلعتني آليت بيميني إن ملأتُ عيني منك وأنا مالك لك أن أجمعك في جامعة. فقال بنو مروان: ثم تطلقه يا أمير المؤمنين؟ قال: ثم أُطلقه، وما عسيت أن أفعل بأبي أميّة؟ فقال بنو مروان: أبرَّ قسم أمير المؤمنين فقال عمرو: فأبرَّ قسمك يا أمير المؤمنين. فأخرج عبد الملك من تحت فراشه جامعة فطرحها إليه، ثم قال: يا غلام، قم فاجمعه فيها. فقام الغلام فجمعه فيها، فقال عمرو: أُذكِّرُك الله يا أمير المؤمنين أن تُخرجني فيها على رؤوس الناس فقال عبد الملك: أمكراً يا أبا أمية عند الموت؟ لاها اللهِ إذا ما كنّا لنخرجك في جامعة على رؤوس الناس ولمّا نخرجها منك إلا صعدا[4]. ثم اجتذبه اجتذابة أصاب فمه السرير فكسر ثنيَّته، فقال عمرو: أُذكِّرُك الله يا أمير المؤمنين أن يدعوك كسر عظمي إلى ما هو أعظم من ذلك. فقال عبد الملك: والله لو أعلم أنّك إذا بقيت تفي لي وتصلح قريش لأطلقتك ولكن ما اجتمع رجلان قطّ في بلد على ما نحن عليه إلا أخرج أحدهما صاحبه[5]،

(1) الدور السياسي لأهل اليمن، ص: 87.
(2) المصدر نفسه.
(3) الكامل في التاريخ نقلاً عن الدور السياسي لأهل اليمن، ص: 87.
(4) الصعد: المشقة. وعذاب صعد: شديد.
(5) البداية والنهاية (11/ 117).

وجاء في رواية: أن عبد الملك كلّف أخاه عبد العزيز بقتله. وخرج لصلاة العصر ولما رجع من صلاته وجد أخاه لم يقتله فلامه وسبّه وسبّ أمه - ولم تكن أم عبد العزيز أم عبد الملك - فقال: إنه ناشدني الله والرحم وكان ابن عمة عبد الملك بن مروان، ثم إن عبد الملك قال: يا غلام ائتني بالحربة، فأتاه بها فهزها وضربه بها فلم تغن شيئاً، ثم ثنى فلم تغن شيئاً، فضرب بيده إلى عضد عمرو فوجد مس الدرع فضحك وقال: ودارعٌ أيضاً، إن كنت لمُعِدّا، يا غلام ائتني بالصّمصامة، فأتاه بسيفه ثم أمر بعمرو فصُرع فجلس على صدره فذبحه وهو يقول:

يا عمرو إن لا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حيث تقول الهامة اسقوني

وانتفض عبد الملك بعد ما ذبحه كما تنتفض القصبة برعدة شديدة جداً بحيث إنهم ما رفعوه عن صدره إلا محمولاً فوضعوه على سريره وهو يقول: ما رأيت مثل هذا قط قتلة، صاحب دنيا ولا طالب آخرة. ودفع الرأس إلى عبد الرحمن بن أمّ الحكم، فخرج به للناس فألقاه بين أظهرهم وخرج عبد العزيز بن مروان ومعه البدرُ[1] من الأموال تحمل، فأُلقيت بين الناس فجعلوا يختطفونها، ويقال: إنها استرجعت بعد ذلك إلى بيت المال، ويقال: إن الذي ولي قتل عمرو بن سعيد مولى عبد الملك أبو الزُّعيزعة بعد ما خرج عبد الملك من الصلاة[2]. وهكذا تخلص عبد الملك من منافس قوي له ولم يبالي بنقض العهود، وسفك الدماء فالطريق نحو الملك جعله يتخلص من ابن عمته عمرو بن سعيد، ومن أحب الأصدقاء إليه مصعب بن الزبير، ومن أفضل أهل الأرض في زمانه على حد تعبيره عبد الله بن الزبير.

سابعاً: مصالحة عبد الملك للروم والتضييق على الجراجمة:

نظراً للاضطرابات الداخلية في دولة عبد الملك اضطر عبد الملك إلى مصالحة الروم على أن يدفع لهم 365 ألف قطعة ذهبية، 360 عبداً و330 جواداً أصيلاً سنوياً وأن تقسم الدولة البيزنطية والدولة الأموية خراج قبرص وأرمينيا[3]، وارتهن منهم رهائن وضعهم في بعلبك[4] في مقابل ذلك يسحب ملك الروم الجراجمة إلى وسط الإمبراطورية البيزنطية[5]، ولم يمتنع عبد الملك عن مصالحة الجراجمة في جبل اللكام ووافق على أن يدفع لهم ألف دينار كل جمعة[6]، ولكن سرعان ما سنحت الفرصة لعبد الملك للتخلص من الجراجمة فبعد

(1) البدر: جمع بدرة: وهي كيس فيه مقدار من المال يتعامل ويقدم في العطايا.
(2) البداية والنهاية (11/ 119).
(3) الدولة البيزنطية، ص: 158، الدور السياسي لأهل اليمن، ص: 90.
(4) فتوح البلدان (1/ 190).
(5) المصدر نفسه (1/ 190)، الدور السياسي لأهل اليمن، ص: 90.
(6) أنساب الأشراف (5/ 300299)، الدور السياسي، ص: 90.

أن عقد الصلح معهم أرسل أحد قادته الثقات سحيم بن المهاجر إلى القائد البيزنطي والذي كان على رأس الجراجمة ونجح في كسب ثقته، ثم كاده بقوات دبرها لهذا الشأن فقتل القائد البيزنطي وهرب أصحابه وأمّن الباقين فرجع العبيد إلى أسيادهم والأنباط إلى قراهم[1]، كما أن الاتفاقية مع الدولة البيزنطية لم تدم طويلاً، لأن الروم نقضوا العهد كما أن عبد الملك استطاع القضاء على ابن الزبير وتوحيد الدولة تحت زعامته مما جعله يفكر بالرد على تحديات البيزنطيين المتكررة فعين أخاه محمد بن مروان سنة 73 هـ[2]، فشرع في غزوهم سنة 74 هـ[3].

ثامناً: زفر بن الحارث الكلابي:

ظل القيسيون الموتورون في مرج راهط على ولائهم لابن الزبير، وكان أحد كبار زعمائهم - زفر بن الحارث الكلابي - قد فر إلى قرقيسيا، وتحصن بها وثابت إليه قيس وأصبح تجمعه هناك مركزاً لشن الغارات على كلب في المناطق المجاورة له، مما كان يسبب إحراجاً بالغاً لعبد الملك الذي كان يطمح إلى استعادة بقية بلدان العالم الإسلامي تحت سيادته وسلطانه وكان في هذه الفترة يوجه كل جهوده لاستعادة العراق من سيطرة مصعب بن الزبير وكان لابد لعبد الملك إذا أراد أن يضم إليه العراق، وينهي سيطرة الزبيريين عليه، من أن ينهي اعتصام زفر بن الحارث في قرقيسيا، فسار إليه في جيشه الذي كان جهزه لحرب مصعب بن الزبير وبدأ بزفر أولاً فحاصره ولكن رجال زفر أبدوا بطولة عجيبة وانتزعوا إعجاب عبد الملك الذي قال: لا يبعد الله رجال مضر، والله إن قتلهم لذل، وإن تركهم لحسرة[4]، ولجأ عبد الملك إلى المسالمة وكتب إلى زفر يدعوه إلى طاعته ويرغبه فيها ويهدده إن لم يقبل ذلك، وبعد جهود ومفاوضة أرسل إليه زفر يجيبه إلى طلبه، ويشترط عليه أن يبقى له الخيار في أن يظل مخلصاً لابن الزبير أو ينضم إلى عبد الملك، ورغم ذلك فقد وافق على شرطه، وأعطاه الأمان وابنه وقائده الهذيل بن زفر، وجميع أتباعهما، ولم يأخذ بمال أو دم أهدره، بل أعطى عبد الملك الزعيم القيسي مبلغاً من المال يوزعه بين أتباعه، ثم اختتم ذلك العمل بأن زوج ابنه مسلمة بن عبد الملك بالرباب بنت زفر بن الحارث، كما أمر زفر ابنه الهذيل أن ينضم إلى جيش عبد الملك المتجه إلى حرب مصعب بن الزبير، إذ لم يكن على ولده ما عليه هو من بيعة ابن الزبير[5]، وحرص عبد الملك إلى تحقيق التوازن بين القبائل اليمانية والقيسية وجعل في أصحابه زفر بن الحارث الكلابي وابنيه الهذيل وكوثراً وعبد الله بن سعدة الفزاري وغيرهم من زعماء قيس، كما كان في أصحابه حسان بن مالك الكلبي، وروح بن زنباع الجذامي ورجاء

(1) أنساب الأشراف (5/ 301).
(2) الكامل لابن الأثير نقلاً عن الدور السياسي، ص: 92.
(3) الكامل في التاريخ (3/ 84).
(4) المصدر نفسه (3/ 61).
(5) المصدر نفسه (3/ 62).

ابن حيوة الكندي وغيرهم من زعماء اليمانية، وكما عدل بين الفريقين في مجلسه عدل بينهم في وظائفه فكان يختار ولاته على الأمصار من القيسية غالباً بينما يختار موظفي بلاطه من اليمانية وهكذا[1].

تاسعاً: ضم العراق والقضاء على مصعب بن الزبير:

بعد أن استعاد ابن الزبير نفوذه على العراق أصبحت المواجهة محتومة بينه وبين عبد الملك، الذي قرر أن يقود المعركة بنفسه بعد أن شاور خاصته في ذلك، فمنهم من أشار عليه أن يقيم في الشام، ويرسل واحداً من أهله ليقود الجيش، ومنهم من أشار عليه بأن يسير بنفسه، فمال هو على هذا الرأي. وقال: إنه لا يقوم بهذا الأمر إلا قرشي له رأي، ولعلي أبعث من له شجاعة ولا رأي له، وإني بصير بالحرب، شجاع بالسيف إن احتجت إليه، ومصعب شجاع من بيت شجاعة ولكنه لا علم له بالحرب.. ومعه من يخالفه، ومعي من ينصح لي[2]. عزم عبد الملك إذن على السير إلى العراق لانتزاعه من ابن الزبير وكان ذلك في سنة 71 هـ أي بعد أربع سنين من القضاء على المختار ولعله آخر الصدام مع ابن الزبير إلى هذا الوقت متعمداً، فهو لم يشأ أن يسير إلى العراق إلا بعد أن يوطد دعائم حكمه في الشام، فقضى هذه السنين في تحقيق هذا الهدف فقد حل مشاكله مع زفر بن الحارث الكلابي الذي كان معتصماً في قرقيسيا[3]، مهدداً بذلك إقليم الجزيرة كله، وقد عالج عبد الملك مشكلة زفر بالحكمة والسياسة، واصطلح معه، وأنهى بذلك مسألة قرقيسياء التي استمرت حوالي سبع سنين كالشوكة في جنب دولته، وأحكم سيطرته على إقليم الجزيرة[4]، ثم تخلص من منافسه الخطير، وهو عمرو بن سعيد الأشدق[5] ولما أراد الخروج للعراق ودّع زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فبكت وبكى جواريها لبكائها فقال: قاتل الله كثير عزة لكأنه يشاهدنا حين قال:

إذا ما أراد الغزو لم يثن همّهُ حَصانٌ عليها عِقدُ دُرٍ يزينها
نهته فلما لم تر النّهي عاقه بكت وبكى ممّا عناها قطينها[6]

وسارع عبد الملك إلى العراق بجيشه وجعل على مقدمته أخاه محمد بن مروان ونزل

(1) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 386.
(2) الكامل في التاريخ (3/ 51).
(3) الكامل في التاريخ (3/ 59).
(4) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 501، نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(5) البداية والنهاية (11/ 119).
(6) الكامل في التاريخ (3/ 51)، قطينها : خدمها.

بمسكن وكان مصعب قد علم بمسيره، ونزل بمسكن مقدمته إبراهيم بن الأشتر، ونزل باجميرا[1]، وأخذ عبد الملك يكاتب زعماء أهل العراق من جيش مصعب يعدهم ويمنيهم، وكان إبراهيم بن الأشتر قائد جيوش المختار الثقفي قد انضم إلى مصعب بعد مقتل المختار، قد كتب إليه عبد الملك أيضاً، فأخذ الكتاب مختوماً ودفعه إلى مصعب، فقال له: ما فيه فقال له: ما قرأته فقرأه مصعب فإذا هو يدعوه إلى نفسه، ويجعل له ولاية العراق، فقال لمصعب: إنه والله ما كان من أحد آيس منه مني، ولقد كتب إلى أصحابك كلهم بمثل الذي كتب إلي، فأطعني فيهم فاضرب أعناقهم قال: إذا لا تنصحنا عشائرهم، قال: فأوقرهم حديداً، وابعث بهم إلى أبيض كسرى فاحبسهم هناك، ووكل بهم على عشائرهم، فقال: يا أبا النعمان إني لفي شغل عن ذلك، يرحم الله أبا بحر - الأحنف بن قيس - إنه كان ليحذرني غدر أهل العراق، كأنه ينظر إلى ما نحن فيه[2]. وهذا ليس غريباً على أهل العراق، فلهم في الغدر وتغيير المواقف سجل حافل. بل لقد صرح عبد الملك بأن كتبهم كانت تأتيه يدعونه إليهم قبل أن يكتب هو إليهم[3]. ولم يكن هذا خافياً في معسكر مصعب، فعندما استدعى المهلب بن أبي صفرة - وكان من رجاله في ذلك الوقت - يستشيره، قال له: اعلم أن أهل العراق قد كتبوا عبد الملك وكاتبهم، فلا تبعدني عنك. فقال له مصعب: إن أهل البصرة قد أبوا أن يسيروا حتى أجعلك على قتال الخوارج، وهم قد بلغوا سوق الأهواز، وأنا أكره إذا سار عبد الملك إليّ أن لا أسير إليه، فاكفني هذا الثغر[4]. في الوقت الذي كان عبد الملك يكاتب فيه زعماء أهل العراق من قواد مصعب والذين قبلوا التخلي عنه والانضمام إليه[5]. كان حريصاً على ألا يقاتل مصعباً، للمودة والصداقة القديمة التي كانت بينهما فأرسل إليه رجلاً من كلب، وقال له: أقرئ ابن أختك السلام - وكانت أم مصعب كلبية - وقل له يدع دعاءه إلى أخيه، وادع دعائي إلى نفسي، ويجعل الأمر شورى فقال له مصعب: قل له السيف بيننا[6].

ثم حاول عبد الملك محاولة أخرى: فأرسل إليه أخاه محمد ليقول له: إن ابن عمك يعطيك الأمان، فقال مصعب إن مثلي لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالباً أو مغلوباً[7]. ثم دارت المعركة فبدأت خيانات أهل العراق تظهر فقد أمد مصعب إبراهيم بن الأشتر بعتاب ابن ورقاء، وهو من الذين كانوا كاتبوا عبد الملك، فاستاء إبراهيم من ذلك وقال: قد قلت له لا تمدني بعتاب وضربائه، إنا لله وإنا إليه راجعون، فانهزم عتاب بالناس. فلما انهزم صبر ابن الأشتر فقتل[8]، فكان مقتله خسارة كبرى لمصعب، لأنه فوق شجاعته، كان مخلصاً له غاية

(1) تاريخ الطبري (7/ 43).
(2) الكامل في التاريخ (3/ 52).
(3) المصدر نفسه (3/ 52).
(4) المصدر نفسه (3/ 51).
(5) تاريخ الطبري (7/ 44).
(6) الكامل في التاريخ (3/ 52).
(7) تاريخ الطبري (7/ 45).
(8) الكامل في التاريخ (3/ 53).

الإخلاص، ولذلك لما اشتد القتال على مصعب وتحرج موقفه صاح قائلاً: يا إبراهيم ولا إبراهيم لي يوم[1]، تخلى أهل العراق عن مصعب وخذلوه، حتى لم يبق معه سوى سبعة رجال[2]ولكنه ظل يقاتل في شجاعة وبسالة، حتى أثخنته الجراح، وأخيراً قتله زياد بن ظبيان. وكان مقتله في المكان الذي دارت فيه المعركة على قصر دجيل عند دير الجاثليق[3]في جمادى الآخرة سنة72هـ. فلما بلغ عبد الملك مقتله قال: واروه فقد والله كانت الحرمة بيننا قديمة ولكن هذا الملك عقيم[4]، وبمقتل مصعب انتهت المعركة، فدخل عبد الملك الكوفة، وبايعه أهلها، وعادت العراق إلى حظيرة الدولة الأموية. وعين عبد الملك أخاه بشراً والياً عليها، وقبل أن يغادرها أعد جيشاً للقضاء على ابن الزبير بمكة.

1 - أسباب هزيمة مصعب بن الزبير:

هناك أسباب كثيرة ساهمت في هزيمة مصعب بن الزبير منها:

أ - عدم اشتراك المهلب بن أبي صفرة، ومن معه من الجنود، وهو المقاتل العنيد والخبير في شؤون الحرب، وإصرار مصعب بن الزبير على بقائه في قتال الخوارج بناء على رغبة أهل البصرة، علماً بأن المهلب قال: لا تبعدن عنك[5]، ولو لم يبعد مصعب المهلب لتمَّ الاستفادة من جيشه ومن قدرة وخبرة هذا القائد.

ب - خيانة قادة الفضائل من الجيش الزبيري من العراقيين بناء على الأماني التي مناهم إياها عبد الملك، وعدم قدرة مصعب على ثنيهم بعد اكتشاف خيانتهم.

جـ - عدم إغراق أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير الأموال، والأعطيات على أعيان وأشراف أهل العراق لما جاءوا إلى مكة مع مصعب.

د - غضب بعض الشيعة لمقتل المختار، فلقد رأوا في المختار بأنه هو الذي انتقم من قتلة الحسين، بحيث لم يترك أحداً، ولهذا عبّر زائدة بن قدامة عندما طعن مصعب وقال: يالثارات المختار[6].

هـ - قلة الخبرة العسكرية لدى مصعب على الرغم من شجاعته وإقدامه وبطولته التي اعترف بها خصمه.

و - أنهاك جيش الزبيريين فقد خاضوا معارك عدة في العراق بينما كان جيش الأمويين مرتاحاً، فلما رأوا جنود خصمهم تواكلوا وشملهم الرعب[7].

---

(1) تاريخ الطبري (7/ 45).
(2) الكامل في التاريخ (3/ 54، 53).
(3) تاريخ الطبري (7/ 44).
(4) المصدر نفسه (7/ 47).
(5) الكامل في التاريخ (3/ 51).
(6) المصدر نفسه (3/ 54).
(7) تجديد الدولة الأموية للناطور، ص: 80.

ز - عدم مد الخليفة «عبد الله بن الزبير» لأخيه بالقوات والجند، وكان الأجدر به أن يمده بكل ما يستطيع، لأن ضياع العراق من يديه يعني فقدان الموارد المالية وبداية الانهيار السياسي[1].

2 - أثر مقتل مصعب على ابن الزبير وخطبته:

ولما بلغ عبد الله بن الزبير قتل أخيه مصعب، قام فخطب في الناس، فقال: الحمد لله الذي له الخلق والأمر، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ألا أنه لن يُذلل الله من كان الحق معه، وإن كان فرداً، ولم يعز من كان وليه الشيطان وحزبه وإن كان معه الأنام طُرّاً ألا وإنه قد أتانا من العراق خبر أحزننا وأفرحنا، أتانا قتل مصعب ﷺ فأما الذي أفرحنا فعلمنا أنه قتله له شهادة، وأما الذي أحزننا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة، ثم يرعوي بعدها ذوي الرأي إلى جميل الصبر، وكريم العزاء ولئن أصبتم بمصعب لقد أصبت بالزبير قبله، وما أنا من عثمان بخلو مصيبة، وما مصعب إلا عبد من عبيد الله وعون من أعواني، إلا إن أهل العراق أهل الغدر والنفاق، أسلموه وباعوه بأقل الثمن، فإن يقتل فإنا والله ما نموت على مضاجعنا كما تموت بنو العاص، والله ما قتل منهم رجل في زحف في الجاهلية ولا الإسلام وما نموت إلا قعصاً[2] بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف. ألا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذي لا يزول سلطانه، ولا يبيد ملكه، فإن تقبل لا آخذها أخذ الأشِر البَطر، وإن تدبر لا أبك عليها بكاء الحَرِقَ المَهين. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم[3].

3 - رأي عبد الملك في مصعب بن الزبير:

لما وضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك، بكى وقال: ما كنت أقدر أن أصبر عليه ساعة واحدة من حبي له، حتى دخل السيف بيتنا، ولكن الملك عقيم[4]. لقد نسي عبد الملك كل ما كان بينه وبين مصعب ولم يذكر إلا الكرسي وسلطة الحكم، حتى إذا ما تم له الأمر، وخلص له الحكم، أخذ يتحدث عن ما كان بينهما من المودة والخُلة، وراح يذكر محاسنه في مجالسه، وهو يعلم أن ذلك لن يضر ملكه شيئاً[5]. روى ابن كثير أن عبد الملك قال يوماً لجلسائه من أشجع العرب قالوا: شبيب، قطرُّ بن الفجاءة فلان، فلان. فقال عبد الملك: إن أشجع العرب لرجل جمع بين سكينة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة، وأمة الحميد بنت عبد الله بن عامر بن كُريز وأمّه رباب بنت أُنيف الكلبي، سيد ضاحية العرب، وولي العراقين

(1) تجديد الدولة الأموية، ص: 80.
(2) القعص: الموت السريع.
(3) تاريخ الطبري (7/ 53).
(4) تاريخ الطبري (7/ 47).
(5) الأمويون (1/ 380).

خمس سنين فأصاب ألف ألف، وألف ألف، وألف ألف، وأعطى الأمان فأبى ومشى بسيفه حتى مات ذلك مصعب بن الزبير، لا من قطع الجسور مرة هاهنا ومرّة هاهنا[1]. إن مدح مصعب الآن لا يضر عبد الملك شيئاً، فقد مضى إلى ربه، وترك له الدنيا بزخارفها، فهو الآن، وبعد أن لم يعد مصعب يشكل خطراً على ملك عبد الملك، فلا بأس بأن يذكر محاسنه، ولا بأس بأن يؤبنه ولهذا لما جيء برأس مصعب إلى عبد الملك قال: واروه فقد والله كانت الحرمة بيننا قديمة، ولكن هذا الملك عقيم، وأمر به وابنه عيسى فدفنا[2].

4 - ما قيل من رثاء في مصعب بن الزبير:

اشتهر عبيد الله بن قيس الرقيات بالدفاع عن الحركة الزبيرية وكان شاعرها الأول ومما قاله في رثاء مصعب بن الزبير:

نَعَتِ السحائِبُ والغمام بأسرها ... جداً بمسكِنَ عاري الأوصال
تُمسي عوائده السِّباع وداره ... بمنازل أطلالهن بَوَالي
رحل الرِّفاق وغادروه ثاوياً ... للرِّيح بين صَباً وبين شمالِ[3]

5 - سكينة بنت الحسين زوجة مصعب بن الزبير:

كتب مصعب إلى زوجته سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب بعد خروجه من الكوفة بليال:

وكان عزيزاً أن أبيت وبيننا ... حجاب فقد أصبحت مني على عشر
وأبكاهما للعين والله فاعلمي ... إذا ازددت مثليها قصرت على شهر
وأبكي لقلبي منهما أنني ... أخاف بأن لا نلتقي آخر الدهر

وقيل دخل مصعب على سكينة يوم قتل، فنزع ثيابه ولبس غلالة، وتوشح بثوب، وأخذ سيفه، فعلمت سكينه أنه لا يريد أن يرجع، فصاحت: واحزناه عليك يا مصعب، فالتفت إليها وقد كانت تخفي ما في قلبها عنه، فقال: أوكل هذا لي في قلبك؟ قالت: وما أخفي أكثر، فقال: لو كنت أعلم هذا كانت لي ولك حال، ثم خرج فلم يرجع، ولما قتل مصعب خرجت سكينة تطلبه في القتلى فعرفته بشامة في خده، فأكبت عليه وقالت: يرحمك الله، نعم والله خليل المسلمة كنت أدرك والله ما قال عنترة:

وحليل غانية تركت مجندلاً ... بالقاع لم يعهد ولم يتكلم
فهتكت بالرمح الطويل إهابه ... ليس الكريم على القنا بمحرم[4]

(1) البداية والنهاية (11/ 152).
(2) تاريخ الطبري، الأمويون للوكيل (1/ 381).
(3) البداية والنهاية (11/ 156).
(4) المنتظم لابن الجوزي (6/ 114، 115).

وقالت سكينة في رثاء مصعب:

فإن تقتلوه تقتلوا الماجد الذي يرى الموت إلا بالسيوف حراماً
وقبلك ما خاض الحسين منية إلى القوم حتى أوردوه حماما[1]

المبحث الرابع

نهاية أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير ﷺ:

أولاً: محاولات الأمويين إخضاع الحجاز قبل حصار ابن الزبير الأخير:

كانت المناوشات مستمرة بين ابن الزبير وعبد الملك بن مروان على الجبهة الحجازية ومن أهم الحملات التي شنها الطرفين.

1 - حملة حبيش بن دلجة القيني:

تكاد تجمع الروايات أن مروان بن الحكم هو الذي أرسل هذه الحملة إلى الحجاز وذلك بعد مقدمه من مصر[2]. والذي يظهر أن هذه الحملة أرسلت في أواخر عهد مروان بن الحكم حيث توفي مروان قبل أن تكمل مهمتها، الأمر الذي حدا ببعض المؤرخين أن يذكروا أن عبد الملك بن مروان هو الذي أرسل هذه الحملة[3]، وكان عدد أفراد هذه الحملة يتراوح ما بين 6400 إلى 7000 رجل[4]، واستطاع ابن الزبير أن يتغلب على هذا الجيش، فقد أرسل الحارث بن أبي ربيعة وكان والياً على البصرة جيشاً بقيادة الحتف بن السجف التميمي لمواجهة جيش حبيش بن دلجة ومن جهته أرسل ابن الزبير جيشاً آخر بقيادة عباس بن سهل بن سعد الأنصاري ليلتقي بجيش الحتف ويتحدان للقضاء على جيش حبيش وهذا ما تمّ فعلاً[5]، بالربذة[6].

2 - حملة نائل بن قيس الجذامي:

أرسل ابن الزبير نائلاً بحملة بعد وفاة الحتف بن السجف بوادي القرى وأمره أن يعبر إلى نواحي الشام وأن يكون مسلحة بها[7]، وفي رواية أخرى تذكر أن ابن الزبير بعث نائلاً بعد وفاة مروان، وأمره أن يأتي فلسطين[8]، وعلى أية حال فكلا الروايتين تتفقان على أن عبد

(1) موقف الشعر من الحركة الزبيرية، ص: 60.
(2) تاريخ الطبري، نقلاً عن عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 181.
(3) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 181.
(4) المصدر نفسه، ص: 181.
(5) تاريخ الطبري (6/ 553).
(6) أنساب الأشراف (5/ 151 - 153).
(7) المصدر نفسه (5/ 158).
(8) المصدر نفسه (5/ 159).

الملك بن مروان استطاع أن يقضي على نائل بن قيس (بأجنادين) [1]، وقد قتل نائل وأصحابه بفلسطين 66هـ.

3 - حملة عروة بن أنيف:

بعث عبد الملك عروة بن أنيف في ستة آلاف إلى المدينة وأمرهم أن لا ينزلوا على أحد، ولا يدخلوا المدينة إلا لحاجة ضرورية أو يعسكروا «بالعرصة» [2] وسار عروة بن أنيف وعسكر بالعرصة، وتشير الرواية إلى أن الحارث بن حاطب - عامل ابن الزبير على المدينة - هرب منها، وكان عروة يدخلها ويصلي الجمعة بالناس ثم يعود إلى معسكره، ومكث عروة على هذا الوضع شهراً، ولم يبعث إليه ابن الزبير أحداً، ولم يحدث أي مواجهة بين جيش عروة وابن الزبير، عندها أمر عبد الملك هذا الجيش بالعودة إلى الشام فرجع[3].

4 - حملة عبد الملك بن الحارث بن الحكم:

أرسل عبد الملك بن مروان هذه الحملة وقوامها أربعة آلاف إلى المدينة وكانت مهمتها الحفاظ على المنطقة ما بين الشام والمدينة. عسكر عبد الملك بن الحارث بوادي القرى ومن هناك أرسل فرقة قوامها خمسمائة رجل بقيادة أبي القمقام إلى سليمان بن خالد - عامل ابن الزبير على خيبر وفدك - للقضاء عليه وقد حاول سليمان الهرب منهم لكنهم أدركوه وقتلوه[4] ولم يستطع ابن الزبير عمل شيء حيال ذلك سوى عزله الحارث بن حطاب وتولية جابر بن الأسود مكانه، وأرسل جابر بن الأسود من جهته حملة بقيادة أبي بكر بن أبي قيس إلى أبي القمقام بخيبر، واستطاع أبو بكر أن يلحق بخصمه الهزيمة[5].

5 - حملة طارق بن عمرو:

كانت هذه الحملة هي آخر حملة وجهها عبد الملك بن مروان تجاه الحجاز وكان الهدف منها أن يسيطر فيما بين «أيلة» و«وادي القرى» ويكون مدداً لمن يحتاج إليه من عمال عبد الملك بن مروان، وفي الوقت نفسه تكون سداً أمام تحركات ابن الزبير وطلب ابن الزبير من واليه على البصرة إرسال قوات لحماية المدينة، فأرسل إليه ألفي رجل بقيادة ابن رواس واستطاعت تلك القوات حماية المدينة ولكن ما لبث ابن الزبير أن أمر ابن رواس بالمسير إلى

---

(1) أجنادين: من نواحي فلسطين، ياقوت، معجم البلدان (1/ 103).
(2) العرصة: وهما عرصتان بنواحي المدينة بالعقيق.
(3) الطبقات نقلاً عن عبد الله ابن الزبير للخراشي، ص: 185.
(4) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 185 نقلاً عن الطبقات.
(5) المصدر نفسه، ص: 186، نقلاً عن الطبقات.

طارق بن عمرو وكانت نتيجة الصدام انتصار طارق بن عمرو وعاد طارق بن عمرو إلى أم القرى ملتزماً بالمهمة التي أوكلها له عبد الملك[1].

ثانياً: الحصار الثاني وسقوط خلافة ابن الزبير:

كان انتصار عبد الملك بن مروان على مصعب بن الزبير في معركة دير الجاثليق إيذاناً بانتهاء دولة عبد الله بن الزبير فقد استقرت له الأمور في جميع الأمصار الإسلامية، وانحصرت دولة ابن الزبير في الحجاز، ولم يكن في استطاعته الصمود، لافتقاره إلى المال والرجال، كما أن مقتل أخيه مصعب قد فت في عضده وأصابه الإحباط، ولكنه لم يلق رايته وظل يقاوم حتى النهاية لم يضيع عبد الملك بن مروان وقتاً بعد انتصاره على مصعب، وقرر أن يقضي نهائياً على دولة ابن الزبير[2] ووقع الخيار لقيادة الجيش للقضاء على ابن الزبير على الحجاج ابن يوسف وتوجه بجيشه إلى الحجاز، واستقر بالطائف وبدأ يرسل بعض الفرق العسكرية إلى مكة، وكان ابن الزبير يرسل إليه بمثلها فيقتتلون وتعود كل فرقة إلى معسكرها[3]، وأمر عبد الملك طارق بن عمرو الذي كان مرابطاً بوادي القرى أن ينضم إلى جيش الحجاج، فتوجه طارق إليه وكان معه خمسة آلاف رجل[4].

1 - الحصار الاقتصادي:

وفي محاولة لإنهاك ابن الزبير قام الحجاج بفرض حصار اقتصادي على مكة ويروي ابن حزم أن عبد الملك بن مروان كان يساهم في فرض هذا الحصار فقد أوكل إلى خالد بن ربيعة بمهمة قطع الميرة عن ابن الزبير وأهل مكة[5]، وقد أثر هذا الحصار على ابن الزبير وأصابت الناس مجاعة شديدة حتى إن ابن الزبير اضطر إلى ذبح فرسه ليطعم أصحابه[6]، وفي الوقت نفسه: كانت العير تحمل إلى أهل الشام من عند عبد الملك السويق، والكعك والدقيق[7]، وقد ترتب على تردي الأحوال داخل مكة، أن بدأ التخاذل يدب بين أنصار ابن الزبير، وبدأوا يسحبون واحداً تلو الآخر، ومما شجع على تخاذل هؤلاء إعطاء الحجاج الأمان لكل من كف عن القتال وانسحب من جيش ابن الزبير[8].

---

(1) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 187.
(2) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 503.
(3) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 189.
(4) المصدر نفسه، ص: 189 نقلاً عن الطبقات لابن سعد.
(5) جمهرة أنساب العرب، ص: 244.
(6) أنساب الأشراف (5/ 361) عبد الله بن الزبير الخراشي، ص: 190.
(7) أنساب الأشراف (5/ 360).
(8) المصدر نفسه (5/ 366)، عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 190.

2 - نصب المنجنيق على جبال مكة:

أراد الحجاج بن يوسف الثقفي أن ينهي أمر ابن الزبير فكتب إلى عبد الملك بن مروان يطلب منه الإذن بقتاله ومناجزته فأجابه عبد الملك بقوله: افعل ما ترى[1]. وهذه الإجابة تحمل في مضمونها الموافقة على طلب الحجاج المتحفز لقتال ابن الزبير وتوجه الحجاج بن يوسف، بجميع جيشه إلى مكة ونصب المنجنيق على جبالها وبدأ يضرب ابن الزبير داخل الحرم ضرباً متواصلاً وفي الوقت نفسه كان بقية جيشه يقاتلون البقية الباقية مع ابن الزبير[2]، وتوسط بعض أعيان مكة وعلى رأسهم ابن عمر لدى الحجاج طالبين إليه أن يكف عن استعمال المنجنيق فأجابهم: والله إني لكاره لما ترون ولكن ماذا أصنع ولقد لجأ هذا إلى البيت؟ وكانت وفود الحج قد جاءت إلى مكة من كافة الأقطار الإسلامية وقد منعهم من الطواف حول البيت ما يتعرض له الطائفون من خطر المنجنيق، ولما كان في ذلك تعطيل لركن من أركان الحج فقد تدخل في الأمر ابن عمر فكتب إلى الحجاج يقول له: اتق الله فإنك في شهر حرام وبلد حرام وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيراً[3]، فأرسل الحجاج إلى طارق بن عمرو بأن يكف عن استعماله حتى ينتهي الناس من الحج، وقال لهم: والله إني لكاره لما ترون، ولكن ابن الزبير لجأ إلى البيت[4]، وأياً ما كان فقد كف عن استعمال المنجنيق حتى انتهى الناس من الطواف[5]، وبعدما انتهى موسم الحج نادى الحجاج في الناس بالانصراف إلى البلاد وأن القتال سيستأنف ضد ابن الزبير[6]، ويروي البلاذري أن العديد ممن كانوا مع ابن الزبير حاولوا إقناعه بقبول أمان الحجاج بن يوسف، فلم يستجب ابن الزبير لمحاولاتهم وأصر على القتال وقد سطرت الروايات مواقف بطولية رائعة لابن الزبير ﷺ في مواجهة كتائب الحجاج ولم يمنعه كبر وخذلان من حوله، من الثبات على مبدئه الذي قاتل من أجله[7].

3 - أسماء بنت الصديق ترسم لابنها طريق الأحرار:

بعد انتهاء موسم الحج نادى الحجاج في الناس أن يعودوا إلى بلادهم لأنه سيعود إلى

---

(1) أنساب الأشراف (5/ 358).
(2) المصدر نفسه (5/ 358).
(3) المصدر نفسه (5/ 376) الحجاج بن يوسف المفترى عليه، ص: 53.
(4) المنتقى في أخبار أم القرى، ص: 26، الحجاج المفترى عليه، ص: 53.
(5) الحجاج بن يوسف المفترى عليه، ص: 54.
(6) أنساب الأشراف (5/ 376) الحجاج بن يوسف المفترى عليه، ص: 54.
(7) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 191.

ضرب البيت بالحجارة[1]، وبالفعل بدأ يضرب الكعبة، وشدد على ابن الزبير، وتحرج موقفه وانفض عنه معظم أصحابه، ومنهم ابناه حمزة وخبيب، اللذان ذهبا إلى الحجاج وأخذا منه الأمان لنفسيهما[2]. فلما رأى ذلك دخل على أمه فقال لها: يا أمه خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: أنت والله يا بني اعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامضى له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك، وأهلكت من قتل معك، وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا، القتل أحسن. فدنا ابن الزبير فقبل رأسها وقال: هذا والله رأيي، والذي قمت به داعياً إلى يومي هذا ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمه، ولكني أحببت أن أعلم رأيك، فزدتني بصيرة مع بصيرتي فانظري يا أمه فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك وسلمي الأمر لله، فإن ابنك لم يتعمد منكر، ولا عملاً بفاحشة، ولم يجر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي، اللّهم إني لا أقول هذا تزكية مني لنفسي، أنت أعلم بي، ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عني، فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً إن تقدمتني، وإن تقدمتك ففي نفسي، اخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك. قال: جزاك الله يا أمه خيراً، فلا تدعي الدعاء لي قبل وبعد. فقالت: لا أدعه أبداً، فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق ثم قالت: اللّهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبره بأبيه وبي، اللّهمّ قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين[3]، فتناول يديها ليقبّلها فقالت: هذا وداع فلا تبعد. فقال لها: جئت مودعاً لأنّي أرى هذا آخر أيامي من الدنيا قالت: امض على بصيرتك وادن مني حتى أودّعك. فدنا منها فعانقها وقبّلها فوقعت يدها على الدرع فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد. فقال: ما لبسته إلّا لأشدّ منك. قالت: فإنّه لا يشدّ مني، فنزعها ثمّ أدرج كميه، وشد أسفل قميصه، وجبة خز تحت القميص فأدخل أسفلها في المنطقة، وأمه تقول: البس ثيابك مشمّرة ثم انصرف ابن الزبير وهو قول:

إنّي إذا أعرف يومي أصبر وإنّما يعرف يومه الحُرّ

(1) الكامل في التاريخ (3/ 69).
(2) المصدر نفسه (3/ 70).
(3) تاريخ الطبري (7/ 76).

فسمعت والدته قوله فقالت: تصبر والله إن شاء الله، أبوك أبو بكر والزبير، وأمك صفية بنت عبد المطلب[1].

4 - استشهاد ابن الزبير ﷺ:

إن الثبات على المبدأ - وإن كان يعارض مصالح الشخص، ويعرضها للخطر - يعتبر من أنبل الصفات، وقد تأصلت هذه الصفة في ابن الزبير، فما وهن وما ضعف وما استكان في سبيل المبادئ التي نادى من أجلها ففي آخر يوم من حياته صلّى ركعتي الفجر ثم تقدم وأقام المؤذن فصلى بأصحابه فقرأ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ [القلم: 1] حرفاً حرفاً، ثم سلم فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم خطب خطبة بليغة جاء فيها: . . . فلا يرعكم وقع السيوف فإني لم أحضر موطناً قط إلا ارتثثت فيه من القتل وما أجد من أدواء جراحها أشد مما أجد من ألم وقعها. صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم، لا أعلم امرأ كسر سيفه، واستبقى نفسه، فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزل غضوا أبصاركم عن البارقة، ويشغل كل امرئ قرنه، ولا يلهينكم السؤال عني، ولا تقولن: أين عبد الله بن الزبير؟ ألا من كان سائلاً عني فإني في الرعيل الأول.

أبى لابن سلمى أنه غير خالد ... ملاقي المنايا أي صرف تيمّما
فلستُ بمبتاع الحياة بسُبَّة ... ولا مُرتَقٍ من خشية الموت سُلَّما

احملوا على بركة الله. ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون، فرُمي بآجُرَّة فأصابته في وجهه فأرعش لها، ودمي وجهه، فلما وجد سخونة الدم يسيل على وجهه ولحيته قال:

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما[2]

وقاتلهم قتالاً شديداً، فتعاونوا عليه فقتلوه يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة وله ثلاث وسبعون سنة[3]، وتولى قتله رجل من مراد، وحمل رأسه إلى الحجاج وسار الحجّاج وطارق ابن عمرو حتى وقفا عليه، فقال طارق: ما ولدت النساء أذكر من هذا. فقال الحجّاج: أتمدح مخالف أمير المؤمنين؟ قال: نعم هو أعذر لنا، ولولا هذا لما كان لنا عذر، إنّا محاصروه منذ سبعة أشهر وهو في غير جند ولا حصن ولا مَنَعة فينتصف منّا بل يفضل علينا. فبلغ كلامهما عبد الملك فصوّب طارقاً[4]، ولما صلب ابن الزبير ظهرت منه رائحة المسك[5]، وقد ذكر أن ابن الزبير في يوم استشهاده قال: ما أُراني اليوم إلا مقتولاً، لقد رأيت في ليلتي كأنَّ السماء فرجت لي، فدخلتها، فقد والله مللت الحياة وما فيها[6].

---

(1) تاريخ الطبري (7/ 79).
(2) المصدر نفسه (7/ 77).
(3) الكامل في التاريخ (3/ 73).
(4) المصدر نفسه (3/ 73).
(5) المصدر نفسه (3/ 74).
(6) سير أعلام النبلاء (3/ 378).

5 - أسماء ﷺ تقيم الحجة على الحجّاج:

لما قتل عبد الله خرجت إليه أمُّه حتى وقفت عليه، وهي على دابة، فأقبل الحجّاج في أصحابه فسأل عنها فأخبر بها، فأقبل حتى وقف عليها فقال: كيف رأيت نصر الله الحق وأظهره؟ قالت: ربما أُديل الباطل على الحق، وإنك بين فرشها والجيّة. فقال إنّ ابنك ألحد في هذا البيت، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج: 25] وقد أذاقه الله ذلك العذاب الأليم، قطع السبل قالت: كذبت، كان أوّل مولود ولد في الإسلام بالمدينة، وسُرّ به رسول الله ﷺ، وحنّكه بيده وكبّر المسلمون يومئذ حتى ارتجت المدينة فرحاً به، وقد فرِحتَ أنت وأصحابك بمقتله، فمن كان فرح يومئذٍ خير منك ومن أصحابك، وكان مع ذلك برًّا بالوالدين صوّاماً قوّاماً بكتاب الله معظماً لحُرُم الله، يُبْغِضُ أن يُعصى الله ﷻ [1]، وقد دافعت عن ابنها دفاعاً مجيداً، فانكسر الحجّاج وانصرف، فبلغ ذلك عبد الملك، فكتب إليه يلومه في مخاطبته أسماء وقال: ما لك ولابنة الرجل الصالح[2].

6 - ابن عمر وثناؤه على ابن الزبير بعد استشهاده:

مرّ عبد الله بن عمر على ابن الزبير بعد صلبه فقال: السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خُبيب، السلام عليك أبا خبيب، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله إن كنت ما علمت صوّاماً قوّاماً وصولاً للرحم، أما والله لأُمّة أنت شرُّها لأمة خير، ثم نفذ عبد الله بن عمر فبلغ الحجّاج وقوف ابن عمر عليه وقوله، فأرسل إليه فأنزله عن جذِعة[3].

7 - بيعة ابن عمر لعبد الملك:

لما أجمع الناس على البيعة لعبد الملك بن مروان كتب إليه ابن عمر: أما بعد: فإني قد بايعت لعبد الملك أمير المؤمنين بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت، وإن بنيَّ قد أقرّوا بذلك[4]، وجاء في رواية أن ابن عمر كتب إلى عبد الملك بن مروان فبدأ باسمه، فكتب إليه: أما بعد: فالله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه... إلخ». وقد بلغني أن المسلمين اجتمعوا على البيعة لك، وقد دخلت فيما دخل فيه المسلمون والسلام[5]، وحاول بعض بطانة الخليفة أن يوغروا صدره على ابن عمر لأنه بدأ باسمه قبل اسم الخليفة، فقال عبد الملك: إن هذا من أبي عبد الرحمٰن كثير[6]؟. وكان مما كتب به عبد

(1) البداية والنهاية (11/ 209).
(2) المصدر نفسه (11/ 209).
(3) المصدر نفسه (11/ 210)
(4) الطبقات (4/ 152).
(5) المصدر نفسه (4/ 152)
(6) عبد الله بن عمر، محيي الدين مستو، ص: 108 الطبقات (4/ 152).

الملك إلى الحجّاج بن يوسف ألا يخالف عبد الله بن عمر في الحج[1] لما يعرفه من فضله وفقهه[2].

8 - ابن عمر ﷺ والحجاج:

بقي الحجّاج بن يوسف الثقفي والياً على مكة بعد مقتل ابن الزبير وكان عبد الله بن عمر يترك المدينة ويأتي مكة حاجاً أومعتمراً، ويرى أو يسمع من أفعال الحجاج وأقواله المخالفة للشرع فيأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر يرد عليه بكل جرأة وشجاعة[3] وبعدما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير وتمت له السيطرة على مكة خطب الناس، وكان مما قال: إن ابن الزبير حرف كتاب الله وفي رواية غير كتاب الله، فقام ابن عمر وقال: كذبت كذبت كذبت، ما يستطيع ذلك، ولا أنت معه[4]، وخطب الحجاج الناس يوم الجمعة، فأطال حتى كاد يذهب وقت الصلاة، فقام ابن عمر فقال: أيها الناس قوموا إلى صلاتكم فقام الناس، فنزل الحجاج فصلى، فلما انصرف قال لابن عمر: ما حملك على ذلك؟ قال: فقال: إنما نجيء للصلاة فصلِّ الصلاة لوقتها، ثم بقبق[5] بعد ذلك ما شئت من بقبقة[6]، كما أنكر ابن عمر على الحجّاج تهاونه في إشاعة حمل السلاح في مكة وتركه لرجال جيشه يضايقون به المسلمين ويعرضون حياتهم بذلك للخطر، ففي الصحيح عن سعيد بن جبير قال: كنت مع ابن عمر حين أصابه سنان الرمح في أخمص قدمه فلزقت قدمه بالركاب فنزلت فنزعتها وذلك بمنى فبلغ الحجّاج فجعل يعوده فقال الحجّاج: لو نعلم من أصابك فقال ابن عمر: أنت أصبتني، قال: وكيف؟ قال: حملت السلاح في يوم لم يكن يحمل فيه، وأدخلت السلاح الحرم ولم يكن السلاح يدخل الحرم. وفي رواية عن إسحاق بن سعيد عن أبيه قال: دخل الحجّاج على ابن عمر وأنا عنده فقال: كيف هو؟ فقال: صالح. فقال: من أصابك؟ قال: أصابني من أمر بحمل السلاح في يوم لا يحل فيه حمله - يعني الحجّاج[7] - ولما خرج الحجّاج قال ابن عمر: ما آسى على شيء من هذه الدنيا إلا على ثلاث وذكر منها: ألا أكون قاتلت هذه الفئة الباغية التي حلت بنا[8]، يقول الذهبي في تعليقه: يعني بالفئة الباغية الحجّاج[9] وأنا أزيد: ومن أرسله.

---

(1) نسب قريش، ص: 108.
(2) عبد الله بن عمر، محيي الدين مستو، ص: 108.
(3) المصدر نفسه، ص: 108.
(4) الطبقات الكبرى (4/ 184) سير أعلام النبلاء (3/ 230).
(5) بق الرجل: كثر كلامه.
(6) الطبقات (4/ 186، 185) سير أعلام النبلاء (3/ 230).
(7) سير أعلام النبلاء (3/232).
(8) الطبقات (4/ 185).
(9) سير أعلام النبلاء (3/ 232).

9 - منهج ابن عمر في الفتن:

لم يكن ابن عمر بمنأى عن الأحداث السياسية من حوله، بل كانت له نظراته وتحليلاته لتلك الأحداث، وتميز ابن عمر بمواقفه في الفتن تميزاً واضحاً فقد عايش عدداً من الفتن التي ابتليت بها الأمة الإسلامية آنذاك، وقد كشفت تلك الفتن عن حكمة بالغة ونظرة ثاقبة للأحداث مما جعلته بحق مدرسة مليئة بالدروس المفيدة والآداب الجمة التي اهتدى بها كثير من الناس في عصره، وأصبحت بعده معلماً يقتدي به من بعده[1]، كما قال سفيان الثوري رحمه الله: يقتدى بعمر في الجماعة وبابنه في الفرقة[2]، ومن أبرز ما يميز منهج ابن عمر في التعامل مع الفتن ما يلي:

أ - تجنب القتال والحرص على حقن دماء المسلمين: وقد وردت عدة روايات توضح موقف ابن عمر ﷺ من ذلك القتال الدائر في الفتنة الأولى والثانية فعن القاسم بن عبد الرحمن قال: قالوا لابن عمر في الفتنة الأولى: ألا تخرج فتقاتل؟ فقال: قد قاتلت والأنصاب بين الركن والباب حتى نفاها الله ﷻ من أرض العرب، فأنا أكره أن أقاتل من يقول لا إله إلا الله. قالوا: والله ما رأيك ذلك، ولكنك أردت أن يفني أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم بعضاً، حتى إذا لم يبق غيرك قيل: بايعوا لعبد الله بن عمر بإمارة المؤمنين. قال: والله ما ذلك في، ولكن إذا قلتم حي على الفلاح أجبتكم وإذا افترقتم لم أجامعكم، وإذا اجتمعتم لم أفارقكم[3]، وجاءه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى، وأنت ابن عمر وصاحب رسول الله ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعني أن الله حرم دم أخي قائلاً: ألم يقل الله ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: 193] فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يرد قال فما قولك في علي وعثمان قال ابن عمر: ما قولي في علي وعثمان أما عثمان فكان الله قد عفا عنه فكرهتم أن تعفوا عنه وأما علي، فابن عم رسول الله ﷺ وختنه وأشار بيده، وهذا بيته حيث ترون[4]. ولم يكتف ابن عمر رضي الله عنه بالحرص على كف نفسه وتجنيبها إراقة دماء المسلمين، بل سلك بعض السبل التي تؤدي إلى تجنب المسلمين إراقة الدماء فيما بينهم، من ذلك محاولته الجادة - خلال الخلاف بين ابن الزبير وعبد الملك بن مروان - لإنهاء القتال بينهما حقناً لدماء المسلمين[5]. فروى المدائني: أن عبد الله بن عمر كتب إلى عبد الملك بن مروان يأمره بتقوى الله وأن يكف نفسه، فكتب إليه عبد

(1) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 325.
(2) عبد الله بن عمر، محيي الدين مستو، ص: 212.
(3) حلية الأولياء (1/ 294).
(4) هناك رواية: وهذه بته أو بتيه ولعل ذلك تصحيف..
(5) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 328.

الملك أنه سيخرج نفسه ويجعل الأمر شورى، فلما كتب ابن عمر إلى ابن الزبير بذلك لم يلتفت إليه[1].

ب - الحث على السمع والطاعة للإمام القائم ونهيه عن إثارة الفتنة وتفريق الكلمة: قال ابن عمر ﷺ: جاءني رجل في خلافة عثمان فإذا هو يأمرني أن أعتب على عثمان، فلما قضى كلامه قلت له: إنا كنا نقول ورسول الله ﷺ حي: أفضل أمة محمد بعده: أبو بكر وعمر ثم عثمان، وإنا والله ما نعلم عثمان قتل نفساً بغير حق، وجاء من الكبائر شيئاً، ولكنه هذا المال، إن أعطاكموه رضيتم وإن أعطاه قرابته سخطتم. إنما تريدون أن تكونوا كفارس والروم، لا يتركون أميراً إلا قتلوه، ففاضت عيناه بأربع من الدمع ثم قال: اللهم لا تُرْد ذلك[2]، وروى سالم بن عبد الله بن عمر أن أباه قال: لقد عتبوا على عثمان أشياء لو فعلها عمر ما عتبوا عليه[3]. فانظر إلى أي مدى كان حرص عبد الله بن عمر ﷺ في الدفاع عن عثمان والذب عن عرضه والتصدي لما يثيره أهل الفتنة ضد عثمان بن عفان ﷺ لما كان يعلم من خطورة مثل هذا المنحى وما يؤدي إليه النيل من الخليفة والطغاة فيه من فساد، وفرقة، لذا فإن عثمان منحه ثقته فكان يستشيره إبان محنته مع الغوغاء، فحين دخل عليه ابن عمر قال له عثمان: انظر ما يقول هؤلاء يقولون: اخلع نفسك أو نقتلك. قال له ابن عمر: أمخلد أنت في الدنيا؟ قال: لا. قال: هل يزيدون على أن يقتلونك؟ قال: لا قال: هل يملكون لك جنة أو ناراً؟ قال: لا. قال: فلا تخلع قميص الله عليك فتكون سنة، كلما كره قوم خليفتهم خلعوه أو قتلوه[4]. وهذا الرأي من ابن عمر ينم عن بعد نظره وتقديره لعواقب الأمور، وقد أدى استعداده لحمل السلاح للدفاع عن أمير المؤمنين عثمان والتصدي للغوغاء المحاصرين لعثمان في داره، فقد ذكر ابن سعد عن نافع أن ابن عمر لبس الدرع يوم الدار مرتين. ولما قتل عثمان رأى ابن عمر أن الأمة وقعت في محنة، وأن قتل الخليفة بهذه الصورة معصية شؤمها على الأمة خطيرة، لذا لما عرض عليه الغوغاء الخلافة بعد مقتل عثمان قال: إن لهذا الأمر انتقاماً والله لا أعترض له فالتمسوا غيري[5]، وكان ابن عمر ﷺ كثيراً ما يركز في نصائحه للعامة على لزوم الجماعة والإعراض عن دماء المسلمين وأموالهم. فكتب له رجل: اكتب إلي بالعلم كله، فكتب إليه: إن العلم كثير، ولكن إن استطعت أن تلقى الله خفيف الظهر من دماء الناس خميص البطن من أموالهم، كافاً لسانك عن أعراضهم لازماً لأمر جماعتهم فافعل، والسلام[6].

(1) أنساب الأشراف (5/ 195).
(2) المعجم الكبير للطبراني (12/ 285) ابن عمر محي الدين مستو ص: 82.
(3) العواصم من القواسم، ص: 104، 105 ابن عمر محي الدين مستو، ص: 831
(4) العواصم من القواسم، ص: 130.
(5) تاريخ الطبري، أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 332.
(6) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 3341

جـ - استجابته لكل من دعاه إلى خير وتعاونه مع أطراف الخلاف فيما يخدم المصلحة:
ورد أنه كان لا يأتي أميراً - في زمان الفتنة إلا صلى خلفه وأدى إليه زكاة ماله[1] وقيل له: أتصلي مع هؤلاء ومع هؤلاء وبعضهم يقتل بعضنا؟ فقال: من قال: حي على الصلاة أجبته، ومن قال: حي على الفلاح أجبته، ومن قال: حي على أخيك المسلم وأخذ ماله قلت: لا[2]، وكان ابن عمر يتبوأ مكانة رفيعة في الأمة لصحبته لرسول الله وعلمه وعبادته وزهده وكان عبد الله بن محيريز رحمه الله يراه أماناً في الأرض حيث قال: والله إن كنت أعد بقاء ابن عمر أماناً لأهل الأرض[3].

د - إن ابن عمر ﷺ لم يدعُ إلى وجوب الخضوع المطلق للسلطان، أو جواز البيعة القهرية، أو أن في حياته ما يدل على عدم اهتمامه بأمور المسلمين السياسية أو عدم المشاركة فيها، بل على العكس، فهو كان دائماً أحد الأطراف الرئيسية في المعادلة السياسية في العهد الأموي، وكان أسلوبه هو الحوار واللجوء إلى الشورى، والابتعاد عن الاقتتال، وعندما بدأت الانشقاقات تظهر بين المسلمين اختار أن يكون محايداً وأن يعتزل الاقتتال، لا أن يعتزل الحياة السياسية، وكانت محايدته واعتزاله كنوع من التأمل والتفكر والاطلاع على مواقف الفئات المختلفة والبعد عن المشاركة في سفك دماء بسبب التصارع على السلطة، مع العمل على تهيئة الظروف، والمناخ السياسي الملائم يجمع شمل الأمة. فموقف ابن عمر المحايد كان في البداية بسبب صعوبة تكوين رأي قاطع، فضلاً عن خشية الوقوع في الفتن[4]، وكان يقول: كففت يدي عن القتال فلم أندم والمقاتل على الحق أفضل[5]، وهناك دلائل وحقائق تاريخية تثبت أن ابن عمر، عندما رأى ما يقوم به الحجّاج من مظالم عظيمة في الحرم المكي، وسفك الدماء به، والتعدي على حرمته غيّر رأيه في اعتزال الفتنة، بل وندم على أنه لم يقاتل في جيش علي بن أبي طالب ضد معاوية، الذي كان في نظره خارجاً عن شرعية علي وباغياً عليه، فقد روي حبيب بن ثابت أن ابن عمر عندما حضرته الوفاة قال: ما أجد في نفسي شيئاً إلا أن لم أقاتل الفئة الباغية مع علي[6]، وقد مرّ معنا قول ابن عمر: ما آسى على شيء من هذه الدنيا إلا على ثلاث، ظمأ الهواجر .، ومكابدة الليل، وأني لم أقاتل الفئة الباغية التي نزلت بنا[7]، قال الذهبي: يعني الحجّاج[8]، وقد جاءت في كتب التاريخ أن ابن عمر كان يرى عبد الله بن الزبير أيضاً يندرج تحت مسمى الفئة الباغية وأنه ندم على عدم قتاله لخروجه على بني أمية وبغيه عليهم ونكثه لعهدهم[9]، وهذه الرواية يؤخذ عليها عدة أمور:

---

(1) الطبقات الكبرى (4/ 149).
(2) المصدر نفسه (4/ 170).
(3) تهذيب التهذيب (5/ 331) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 337.
(4) مع المسلمين حلمي مصطفى، ص: 54.
(5) الطبقات (4/ 164).
(6) سير أعلام النبلاء (3/ 232).
(7) المصدر نفسه (3/ 232).
(8) المصدر نفسه (3/ 232).
(9) المصدر نفسه (3/ 229).

- أن عبد الله بن عمر لو كان يعتقد بأحقية بني أمية بالخلافة من ابن الزبير في وقت الفتنة لبايعهم، ولكنه لم يفعل، فكيف يندم على عدم قتاله معهم، وهو لم يبايعهم - في الأصل.

- أن أقوال عبد الله بن عمر الأخرى، التي تؤكد أن الفئة الباغية هي بنو أمية ورجالاتهم وخاصة الحجّاج، كانت آخر أقواله، وهي ما يعتمد عليها، وأسانيدها صحيحة[1].

إن مواقف ابن عمر السابقة تدحض وتبين ضعف الرأي الذي جعل ابن عمر رائداً لمدرسة الخضوع السياسي للسلطان، وخاصة أن ابن عمر هو الذي روى عن رسول الله ﷺ الحديث: على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره إلا أن يؤمر في معصية فلا سمع ولا طاعة[2]، والحديث يدل على عدم طاعة الحاكم إذا أمر بمعصية أو خرج عن حكم الله، ولا يمكن لابن عمر أن يخالف حديثاً رواه، وعلى ذلك فإن نظرة ابن عمر تقوم على أن الطاعة للخليفة الشرعي، الذي بويع بالإجماع أو اتفاق الأغلبية، واجبة ما لم يؤمر بمعصية، فإن ظلم أو جار فلا طاعة له، بل يجب مناصحته، فإن لم تُجْدِ المناصحة يجب عندئذ اللجوء إلى المعارضة الصريحة، ولكنه كان يكره اللجوء إلى العنف والاقتتال، لما في ذلك من سفك الدماء وإضعاف لوحدة الجماعة[3].

10 - منهج أهل الحق في ابن الزبير:

قال النووي في شرح مسلم: مذهب أهل الحق أن ابن الزبير كان مظلوماً، وأن الحجّاج ورفقته خارجون عليه. ودخل الحجّاج على أمّه بعد قتله فقال: كيف رأيتني صنعت بابنكِ؟ فقالت: أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك، وقد أخبرنا رسول الله ﷺ، **«أن في ثقيف مُبيراً وكذّاباً، فأمّا الكذّاب فرأيناه - يعني المختار - وأما المبير[4]، فلا أخا لك إلا إياه»**[5].

11 - هدم الكعبة وبنائها في عهد ابن الزبير:

في سنة 64هـ هدم ابن الزبير الكعبة وكانت قد مال حيطانها[6]، وتهدمت، وتشعّثت من حجر المنجنيق الذي كان يرمي به الحصين بن نمير وأصحابه[7]، ولما أراد ابن الزبير هدم البيت شاور الناس في هدمها، فأشار عليه جابر بن عبد الله وعبيد بن عمير بذلك وقال ابن عباس: أخشى أن يأتي بعدك من يهدمها، فلا تزال تهدم حتى يتهاون الناس بحرمتها ولكن أرى أن تصلح ما وهي منها، وتدع بيتاً أسلم الناس عليه، وأحجاراً بُعِث رسول الله ﷺ عليها.

---

(1) الفقهاء والخلفاء، سلطان بن حثلين، ص: 66.
(2) مسلم رقم (1839).
(3) الفقهاء والخلفاء، ص: 66.
(4) المبير: المُهْلِكُ.
(5) مسلم رقم (2545).
(6) تاريخ الطبري (6/ 520).
(7) شذرات الذهب (1/ 308).

فقال ابن الزبير: لو احترق بيت أحدكم ما رَضي حتى يُجَدِّده، فكيف ببيت ربِّكم[1]؟، ثم إن ابن الزبير استخار الله ثلاثة أيام[2].

ثم عزم في اليوم الرابع على ذلك فرقت الناس وخرج بعضهم هارباً إلى الطائف وإلى عرفات ومنى وطلع ابن الزبير بنفسه واتخذ معه عبداً حبشياً دقيق السّاقين رجاء أن يكون ذا السُّويقتين الحبشي الذي يهدم الكعبة[3]، فبدأ ينقض الرُّكن إلى الأساس فلمّا وصلوا إلى الأساس وجدوا أصلاً بالحجر مشبكاً كأصابع اليدين، فدعا ابن الزبير خمسين رجلاً وأشهدهم على ذلك، ثم بنى البيت وأدخل الحجر فيه[4]، وجعل للكعبة بابين موضوعين بالأرض، باب يدخل منه، وباب يُخرج منه، ووضع الحجر الأسود بيده وشدَّه بفضة، لأنه كان قد تصدّع، وجعل طول الكعبة سبعة وعشرين ذراعاً، وكان طولها سبعة عشر ذراعاً فاستقصروه، وزاد في وسع الكعبة عشرة أذرع ولطخ جدرانها بالمسك، وسترها بالدِّيباج، ثم اعتمر من مساجد عائشة[5]، وطاف بالبيت، وصلّى وسعى وأزال ما كان حول البيت وفي المسجد من الحجارة والقمامة، وما كان حولها من الدماء وكانت الكعبة قد وهت من أعلاها إلى أسفلها من حجارة المنجنيق واسوَدَّ الركن، وانصدع الحجر الأسود من النار التي كانت حول الكعبة، وكان سبب تجديد ابن الزبير لها ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من المسانيد والسُّنن من طرق، عن عائشة أم المؤمنين، أن رسول الله ﷺ قال: «**لولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة ولأدخلت فيها الحجر، فإن قومك قصَّرت بهم النَّفقةُ ولجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً يدخل الناس من أحدهما ويخرجون من الآخر، ولألصقت بابها بالأرض، فإن قومَك رفعوا بابها ليدخلوا من شاءُوا ويمنعوا من شاءُوا**»[6]، فبناها ابن الزبير على ذلك كما أخبرته به خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ، فجزاه الله خيراً، ثم لما غلبه الحجّاج بن يوسف في سنة 73هـ وقتله وصلبه هدم الحائط الشمالي وأخرج الحجر كما كان أولاً، وأدخل الحجارة التي هدمها إلى جوف الكعبة فرضَّها فيها، فارتفع البابُ، وسدَّ الغربيَّ وتلك آثاره إلى الآن، وذلك بأمر عبد الملك بن مروان له في ذلك، ولم يكن بلغه الحديث، فلمّا بلغه الحديث بعد ذلك قال: وددنا أنّا تركناه، وما تولى من ذلك[7].

ثالثاً: أسباب سقوط خلافة ابن الزبير:

من خلال الدراسة تظهر للباحث أسباب عديدة في أسباب سقوط خلافة ابن الزبير وانتصار الأمويين ومن أهم هذه الأسباب:

---

(1) البداية والنهاية (11/ 691).
(2) المصدر نفسه (11/ 691).
(3) شذرات الذهب (1/ 309).
(4) البداية والنهاية (11/ 692).
(5) مساجد عائشة المقصود بها: التنعيم.
(6) البخاري رقم (1583، 4484).
(7) البداية والنهاية (11/ 693).

1 - اتخاذ ابن الزبير الحجاز مقراً لخلافته:

يجمع عدد من الباحثين على أن بقاء ابن الزبير في مكة كان من أهم أسباب إخفاقه[1]، ولئن كان لتوجه ابن الزبير إلى مكة في بداية الأمر له مبرراته[2]، إلا أن إصراره على البقاء فيها واتخاذها عاصمة لخلافته لم يكن في مصلحته وذلك لأن مكة بصفة خاصة والحجاز بصفة عامة لم يعد مكاناً صالحاً ليكون مركزاً لدولة كبيرة مترامية الأطراف، فمكة بعد هجرة النبي ﷺ وأصحابه منها، فقدت دورها السياسي الذي قامت به المدينة إلى عهد عثمان بن عفان، ولما نشبت الفتنة وانتقل علي بن أبي طالب إلى الكوفة، واتخذها عاصمة له، ثم اتخذ معاوية بن أبي سفيان دمشق عاصمة له، بعد أن آلت إليه الخلافة ولم يعد للحجاز - خاصة المدينة ومكة - دورهما السياسي السابق، ويمكن أن نجمل أثر بقاء ابن الزبير في مكة على حركته في النقاط التالية[3]:

أ - الموقع: فمكة - كما هو معروف - من حيث الموقع بعيدة عن الشام والعراق وهما الإقليمان اللذان شهدا أهم مراحل الصراع بين ابن الزبير وبني أمية، فهذا البعد لم يتح لابن الزبير الاطلاع ومتابعة ما يحدث من صراع بين الموالين وخصومه، لاسيما مع ضعف إمكانات الاتصال، وبالتالي فإن ذلك لا يتيح لابن الزبير اتخاذ القرارات المناسبة إزاء ما يجري على الساحة بعكس خصومه الأمويين الذين كانوا يعيشون الأحداث مباشرة، ومن جانب آخر فإن مكة تقع في واد محصور بين عدة جبال شاهقة وهي أشبه ما تكون بالمصيدة لمن يعتصم بها حينما تحاصرها الجيوش من كل الجوانب، ويقطعون عنها الإمدادات، وكادت حركة ابن الزبير تخمد منذ وقت مبكر حينما حاصر الحصين بن نمير ابن الزبير داخل مكة سنة 64هـ لولا أن الله أنقذه بوفاة يزيد بن معاوية وانسحاب جيش الحصين إلى الشام.

ب - الناحية الاقتصادية: تعتمد مكة - بشكل خاص - والحجاز بشكل عام في موارده الاقتصادية على ما يأتيه من خارجها وخاصة من الشام ومصر، وانقطاع هذه الموارد يتسبب في إحداث مجاعة ترهق المقيمين فيه، وقد أفاد بنو أمية من هذا العامل إفادة كبيرة في صراعهم مع ابن الزبير، فبعد سقوط مصر والشام في أيدي الأمويين انقطعت الإمدادات التي تصل إلى المدينة[4]، وبطبيعة الحال فإن مكة سينالها ما نال المدينة، كما لجأ الأمويون إلى هذا السلاح أيام الحصار الأول والثاني[5].

---

(1) مثل، الناطور، والقبلان والخراشي وغيرهم.
(2) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 193.
(3) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 193,1
(4) فتوح البلدان، ص: 218 للبلاذري، عبد الله بن الزبير، ص: 194.
(5) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 194.

جـ - الموارد البشرية: تبع قيام حركة الفتوح الإسلامية هجرة العديد من القبائل إلى الأقاليم المفتوحة وتركزت معظم هذه القبائل في العراق والشام ومصر[1]، وقد ترتب على ذلك اختلال معادلة التوزيع السكاني لترجيح كفة هذين الإقليمين على الحجاز الذي عانى من نقص الكوادر البشرية، وهذا النقص في الواقع لم يتح لابن الزبير تكوين جيش قوي يكون مستعداً في أية لحظة لمهاجمة الخصم، أو على أقل تقدير لصد هجومه، ولذلك نجد أن ابن الزبير إزاء هذا الوضع يلجأ دائماً إلى طلب الإمدادات من العراق وهو بذلك يربط تحركاته بما يكون عليه الوضع في هذا الإقليم من حيث استقراره، واستعداد واليه لإرسال المدد، وهذا مما يفوت على ابن الزبير الكثير من الفرص[2].

2 - سياسة ابن الزبير الإدارية والمالية:

لئن وفق ابن الزبير في تعيين بعض ولاته إلا أن هذا التوفيق لم يكن حليفه في جميع الأحوال، ويبدو أن بقاء ابن الزبير في الحجاز وعدم خروجه إلى الأقاليم الإسلامية لم يتح التعرف على أهل هذه الأقاليم وطبائعهم واتجاهاتهم، وتكوين تصور عام عنهم يعينه على اختيار الولاة المناسبين، ولعل أبرز مثال على اضطراب سياسة ابن الزبير في هذا المجال هو العراق - بمصريه الكوفة والبصرة - ذلك الإقليم الذي كان يعج بالتيارات المختلفة - العقدية والقبلية - والذي يحتاج إلى نوعية خاصة من الولاة تحسن التعامل مع أهله، فلو نظرنا إلى ولاة ابن الزبير على إقليمي العراق وسيرتهم لوجدنا ما يدلل على ذلك، ومن ولاته على الكوفة عبد الله بن مطيع العدوي الذي لم يستطع أن يواجه المختار بن أبي عبيد الثقفي، وهرب من أمامه وخلى بينه وبين الكوفة[3]، وبشكل عام لم يستطع ولاة ابن الزبير ضبط هذا الإقليم الحيوي والاستفادة من طاقات أهله في حرب الأمويين، فقد كان فيه الرجال والأموال، بل على العكس من ذلك فقد كان هذا الإقليم سبباً مباشراً في سقوط خلافة ابن الزبير، وذلك حينما تواطأ أهله مع الأمويين ضد مصعب بن الزبير، أما فيما يتعلق بصلة ابن الزبير بولاته، فيلاحظ أن ابن الزبير كان يخلي بينه وبين واليه والإقليم الذي حكمه ويكل إدارته والقيام بشؤونه حتى في القتال ضد الخصوم، ولم يكن ابن الزبير يتدخل في ذلك، فالصلة بين ابن الزبير وبعض ولاته تكاد تكون مقطوعة مما ترتب عليه سقوط بعض الأقاليم في يد الأمويين، في الوقت الذي كان ابن الزبير يقيم في مكة، ولعل ما حدث لقرقيسياء يدل على ذلك فقد كان زفر بن الحارث الكلابي والياً على هذا الإقليم وكان يقاتل عبد الملك بن مروان عدة سنوات،

(1) هجرة القبائل العربية إلى البلاد المفتوحة للعلي، ص: 23، 57.
(2) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 195.
(3) الطبقات (5/ 148).

وأعاق تقدمه إلى العراق، ولما طال عليه الأمد ولم يقدم له ابن الزبير أي عون اضطر في النهاية إلى التسليم لعبد الملك بن مروان بعد أن أقنعه ابنه الهذيل بن زفر بأن عبد الملك بن مروان خيراً له من ابن الزبير[1]، وأما عن سياسة ابن الزبير الاقتصادية: فبالإضافة إلى قلة موارد ابن الزبير الاقتصادية، يلاحظ أنه كان متأثراً في نظرته لما بين يديه من المال بأسلافه من الخلفاء الراشدين وخاصة عمر بن الخطاب ﷺ، وأراد أن يسلك مسلكهم في طريقة الإنفاق، فأصبح ينظر إلى هذا المال أنه مال الله، وهو حق المسلمين، ولا يجوز أن يصرف إلا في أوجهه الشرعية، وتشدد في ذلك، وهذه السياسة لم ترق للكثيرين في ذلك العصر لأن الناس - كما يقول د. العش - لم يكونوا قادرين على فهم هذه السياسة وقبولها[2]، فلم يسخر ابن الزبير هذا المال في توطيد حكمه، وتقوية صفه وكسب الأنصار من الأعيان والمؤيدين واستمالتهم لمشروعه الشوري، وبطبيعة الحال لقد خسر ابن الزبير الكثير من المناصرين، خصوصاً إذا عرفنا بأن الأمويين كانوا يغدقون الأموال على الشعراء والأعيان والزعماء لكسبهم.

3 - عدم استيعابه لزعماء العراق:

كثير من زعماء القبائل يمكن للحكام أن يستوعبوهم بالأموال والعطايا، فسلاح المال خطير يجذب القلوب ويؤثّر في النفوس، فقد روي أن أخاه مصعباً ذهب إليه بعد مقتل المختار بزعماء أهل العراق وقال له: يا أمير المؤمنين، قد جئتك بزعماء أهل العراق وأشرافهم كل مطاع في قومه، وهم الذين سارعوا إلى بيعتك، وقاموا بإحياء دعوتك، ونابذوا أهل معصيتك، وسعوا في قطع عدوك، فأعطهم من هذا المال: فقال له: . . . جئتني بعبيد أهل العراق وتأمرني أن أعطيهم مال الله، لا أفعل وأيم الله لوددت أن أصرفهم كما تصرف الدنانير بالدراهم، عشرة من هؤلاء برجل من أهل الشام[3]، وجاء في رواية: فقال له أبو حاضر الأسيدي - وكان قاضي الجماعة بالبصرة -: إن لنا ولكم مثلاً مضى يا أمير المؤمنين وهو ما قال الأعشى:

عُلّقتُها عرضاً وعُلّقَت رجلاً غيري وعُلّقَ أخرى غيرها الرَّجل

عُلّقناك يا أمير المؤمنين وعُلّقت أهل الشام، وعُلّق أهل الشام إلى مروان، فما عسينا أن نصنع؟ قال الشعبي: فما سمعت جواباً أحسن منه[4]، ثم بعد ذلك خلعوا ابن الزبير وكتبوا إلى عبد الملك بن مروان أن أقبل إلينا[5].

---

(1) أنساب الأشراف (5/ 305).
(2) الدولة الأموية، ص: 207.
(3) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 506.
(4) البداية والنهاية (11/ 146، 147).
(5) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 506.

4 - عدم بيعة زعماء بني هاشم له ومعارضاتهم لدولته:

فقد امتنع عن بيعته عبد الله بن عباس، ومحمد بن علي بن أبي طالب - ابن الحنفية - وغيرهم. ولم يعاملهم بالرفق واللين، بل اشتد عليهم في بعض الأحيان[1].

5 - إسراف أخيه مصعب في الدماء بعد القضاء على المختار:

فقد جاء مصعب إلى ابن عمر فسلم عليه فقال: من أنت؟ قال: أنا ابن أخيك مصعب بن الزبير. قال: صاحب العراق؟ قال: نعم. قال لابن عمر: أسألك عن قوم خالفوا وخلعوا الطاعة وقاتلوا حتى إذا غلبوا دخلوا قصراً وتحصنوا فيه وسألوا الأمان على دمائهم فأعطوا، ثم قتلوا بعد ذلك، قال: . . يا مصعب لو أن امرأ أتى ماشية الزبير فذبح منها خمسة آلاف شاة في غداة أكنت تعده مسرفاً؟ فسكت مصعب. فقال: أجبني، قال: نعم، إني لأعد رجلاً يذبح خمسة آلاف شاة في يوم مسرفاً. قال: أفتراه إسرافاً في البهائم؟ لا تعبد الله وما تدري ما الله، وقتلت من وحد الله؟ أما كان فيهم مستكره يراجع به التوبة أو جاهل ترجى رجعته[2]؟ فهذا القتل الكثير في أهل العراق أوغر عليه صدور عشائرهم وليس ببعيد أن يكون موقفهم منه في معركة دير الجاثليق له علاقة بهذه الأحداث، فالذي قتل مصعباً هو زياد بن ظبيان، فلما ذهب إلى عبد الملك أمر له بألف دينار فرفض ابن ظبيان أن يأخذ شيئاً وقال لعبد الملك: لم أقتله على طاعتك فإنما قتلته عل قتل أخي النابغ[3]، وقيل اشترك في قتله زائدة بن قدامة الثقفي وقال حين قتله: يا لثارات المختار[4].

6 - تهاون ابن الزبير في أمر الأمويين:

كان الأولى أن يعمل ابن الزبير على منع الأمويين من الخروج من المدينة إلى الشام وبخاصة مروان بن الحكم وابنه عبد الملك، ولو فعل ابن الزبير ذلك لما وجد الأمويون من يلم شعثهم، ويعيد السلطة ثانية، فلم يفكر مروان بن عبد الملك في الخلافة إلا بعد ما خرج من المدينة ووصل الشام، ولم يبذل الجهد المطلوب في دعم مناصريه في الشام، كخروجه على جيش كبير لضبط الأمور بها والقضاء على فتنة الأمويين عند ظهورها.

7 - إهماله الدعاية والإعلان:

وأقصد بذلك عدم اهتمامه بالشعراء وإغداق الهدايا عليهم، صحيح أن دعوة عبد الله بن الزبير أيدها مجموعة من الشعراء كعبيد الله بن قيس الرقيات[5]، الذي قال:

---

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 505، مروج الذهب (3/ 85، 86).
(2) مصنف ابن أبي شيبة (15/ 85).
(3) الكامل في التاريخ (3/ 54).
(4) المصدر نفسه.
(5) ديوان عبيد الله بن قيس، تحقيق محمد يوسف، ص: 117.

أنت ابن معتلج البطاح كُدَيَّها فكُدَائِها
فالبيت ذي الأركان فالمستن من بطحائها

إلى أن قال:

ولدت أغرَّ مباركاً كالبدر وسط سمائها
في ليلة لا نحس فيه سحريها وعشائها
إن البلاد سوى بلادك ضاق عرض فضائها
فاجمع بني إلى بنيك فأنت خير رعائها
نشهدك منا مشهداً ضنكاً على أعدائها
نحن الفوارس من قريش يوم جد لقائها[1]

إلا أن المعركة الإعلامية انتصر فيها الأمويون انتصاراً كبير على ابن الزبير، فقد كانوا يعطون الشعراء ويشترون الناس بالأموال، فهذه أعشى ربيعة من الشعراء الأمويين يقول:

آل الزبير من الخلافة كالتي عجل النتاج بحملها فأحالها
أو كالضعاف من الحمولة حُملت ما لا تطيق فضيعت أحمالها
قوموا إليهم لا تناموا عنهم كم للغواة أطلتم إمهالها
إن الخلافة فيكم لا فيهم ما زلتم أركانها وثمالها
أمسوا على المعروف قفلا مغلقاً فانهض بيمينك فافتتح أقفالها[2]

وسيأتي الحديث عن اهتمام عبد الملك بالشعر والشعراء في الصفحات القادمة بإذن الله تعالى.

8 - استخدام الشدة والقوة مع أخيه عمرو بن الزبير:

إن الطريقة التي اتبعها ابن الزبير في القضاء على أخيه عمرو بن الزبير بعد ما وقع في الأسر جعلت الناس ينظرون إليه على أنه رجل تنقصه العاطفة والشفقة، وكان لذلك مرده السيء على تعاطف الناس مع قضيته، فعمرو بن الزبير كان يضرب الناس في المدينة بناء على تهم موجهة إليهم بشأن تعاطفهم وتعاملهم مع ابن الزبير وكان معيناً من قبل الدولة وكانت قراراته يتخذها بطبيعة عمله، وإن كان فيها شيء من التجني والخطأ والظلم، وبالتأكيد كان الكثير من الناس يتمنون أن يقوم ابن الزبير نفسه بحبه، أو أن يطلب من كل الذين يدّعون على عمرو بن الزبير بأنه ظلمهم أن يسامحوه ويصفحوا عنه، ويغفروا له خطأه[3]، لقد اعتبر البعض أن ابن الزبير

(1) موقف الشعر من الحركة الزبيرية، ص: 26.
(2) المصدر نفسه، ص: 87.
(3) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 535.

ما هو إلا طالب سلطة ودولة وإلا لما تعامل مع أخيه بتلك القسوة[1]، واستغل تلك الحادثة الشعراء الخصوم فقد قال الضحاك بن فيروز الديلمي ساخراً من ادّعاء عبد الله بن الزبير الزهد والصلاح:

تخبرنا أن سوف تكفيك قبضة وبطنك شبرٌ أو أقلُّ من الشبر
وأنت إذا ما نلت شيئاً قضمته كما قضمت نار الغضا حطب السدر
فلو كنت تجزي أو تبيت بنعمة قريباً لردتك العطوف على عمرو[2]

وقال عبد الله بن الزبير الأسدي مؤلّباً على ابن الزبير داعياً عليه:

تحدث من لاقيت أنك عائذ وصرّعت قتلى بين زمزم والركن
قتلتم أخاكم بالسياط سفاهة فيالك للرأي المُشَلَّلِ والأفْن[3]

إلى أن قال:

قطعت من الأرحام ما كان واشجاً على الشّيب وابتعت المخافة بالأمن[4]

9 - تفوق خصوم ابن الزبير:

ليس بمستغرب أن يتفوق بنو أميه على ابن الزبير، الذي لم تتح له الفرصة لأن يتولى إقليماً من الأقاليم ليكتسب الخبرة، في حين أن بني أمية تهيأت لهم العديد من الفرص خاصة بعد أن آلت الخلافة إليهم في عهد معاوية بن أبي سفيان، وفي الجانب العسكري، نلمس تفوق بني أمية على ابن الزبير من حيث التكتيك الحربي، وقيادة الجيوش. ولعل من أبرز ما يلاحظ في ذلك أن مروان بن الحكم قد خرج بنفسه على جيش كبير لضم مصر، ثم باشر ابنه عبد الملك حرب العراق بنفسه وهذا أتاح لهما التعرف على ما يدور في ساحة القتال عن كثب، كما أنه يعطي المقاتلين دفعة معنوية كبيرة، وفي المقابل نجد ابن الزبير يعتمد على قواده أو ولاة الأقاليم في حروبه ولم يغادر مكة قط، وقد انتقد عبد الملك بن مروان هذه السياسة فقال: إن عبد الله بن الزبير لو كان خليفة كما يزعم لأبدى صفحته، وآسى أنصاره بنفسه، ولم يغرز ذنبه في الحرم[5]، ويلاحظ أيضاً أن بني أمية منذ صراعهم مع ابن الزبير كانوا دائماً في موضع المهاجم بعكس ابن الزبير الذي ظل في موقف الدفاع[6].

(1) مواقف المعارضة، ص: 535.
(2) الحزب الزبيري في أدب العصر الأموي، ثريا ملحس، ص: 225.
(3) المصدر نفسه، د.ثريا ملحس، ص: 228 الأفن: ضعف الرأي.
(4) المصدر نفسه، ص: 228.
(5) الطبقات (5/ 232).
(6) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 199.

10 - الظروف التي نشأت فيها حركة ابن الزبير:

إن من الإنصاف أن تذكر أن الظروف السيئة التي وجدت فيها حركة ابن الزبير ساهمت إلى حد كبير في سقوط خلافته، تمثلت هذه الظروف بظهور التيارات والاتجاهات المذهبية، والقبلية، وانعدام الاستقرار السياسي الذي هو من أهم الشروط لقيام حكم مستقر، لقد أشغل الخوارج ابن الزبير كثيراً، كما أن حركة المختار أخذت من جهده ووقته ورجاله، فهذه الحركات ذات المنطلقات العقائدية أشغلت ابن الزبير كثيراً عن التفكير في تنظيم دولته، كما استنزفت الكثير من طاقاته المادية والبشرية[1]

11 - رابعاً: رثاء عبد الله بن الزبير: رثى ابن الزبير بقصائد كثيرة مبكية حزينة حفظها لنا التاريخ، ولم تهملها الليالي، ولم تفصلها عنّا حواجز الزّمن، ولا أسوار القرون ومما قيل في رثائه ما قاله عبد الله بن أبي مسروح:

لقد أدركت كتائب أهل حمص ... لعبد الله طرفاً غير وعل
شجاع الحرب إذ شدّت وقوداً ... وللحادين خيرُ محلّ رحل
ومن ذا يكره الأبطال منه ... إذا اعتنشوا طريقاً غير سهل
فمال الشامتين بنا أصيبوا ... وقلُّوا من سراتهم لمثلِ[2]

وقال قيس بن الهيثم السلمي:

فقدنا مصعباً وأخاه لمّا ... نَفَتْ سماؤهما المحُولا
وكنا لا يرام لنا حريم ... تُسحّبُ في مجالسنا الذيولا
إذا أمن الجناب وإن فزعنا ... ركبنا الخيل واجتنبنا الشُّليلا
ونرمي بالعداوة من رمانا ... ونوطئهم بها وطأ ثقيلاً
فيا لهفي ولهف أبي وأمي ... لقد أصبحت بعدهما ذليلا
ويا لهفاً على ما فات مني ... ألا أصبحت في القتلى قتيلا
ولم أصبح لأهل الشام نَصْباً ... يذكرني ابن مروان الذُّحولا
فلا رفداً يعدّ ولا غناء ... ولا إذْناً ولا حبساً جميلا
ولكن بين ذلك بين بين ... لقد ضلّ ابن مروان السبيلا[3]

(1) عبد الله بن الزبير، للخراشي، ، ص: 199.
(2) تاريخ ابن عساكر (30/ 193).
(3) تاريخ دمشق لابن عساكر (30/ 193، 194).